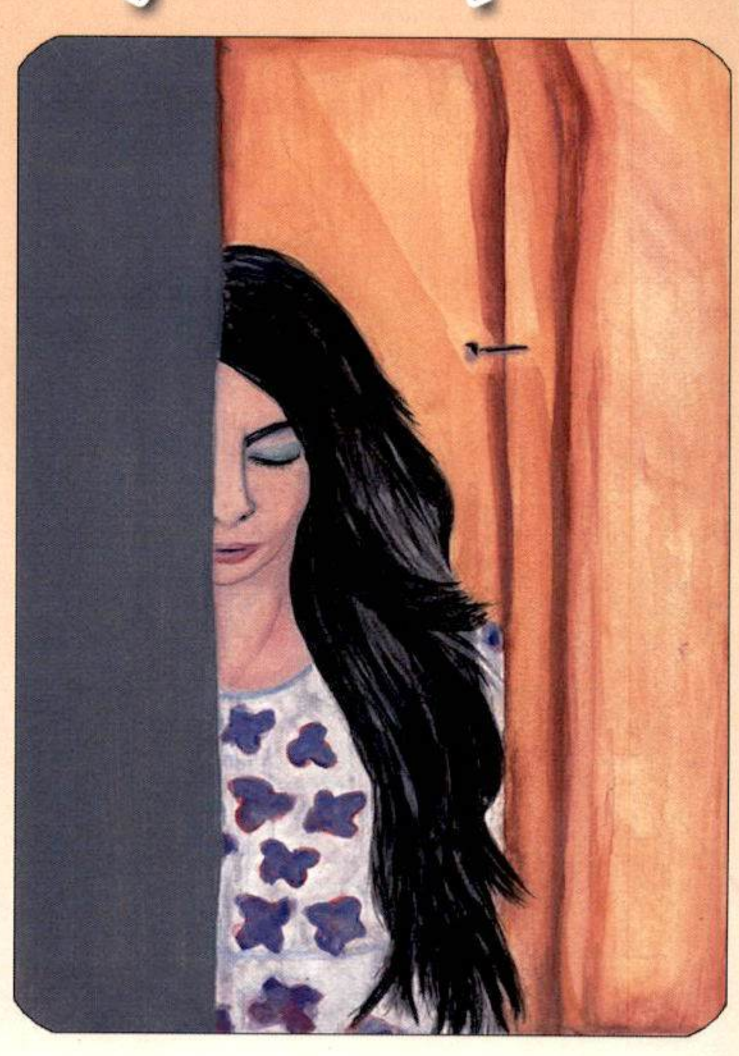
طَعْم السُّكَّر



زينب بنت محمد

طَعْم السُّكّر

زينب محمد

كيان كورب للنشر والتوزيع

دار ليلى

الكتاب:

طعم السكر

المؤلف:

زينب محمد

★ ★ ★

الإشراف العام:

محمد سامي

★ ★ ★

المهندسين-12 شارع أحمد عرابي - الدور 3 - مكتب 8

هاتف: 23885295(012)(002)

البريد الإليكتروني: mail@darlila.com   الموقع الرسمي: www.darlila.com

زينب محمد

طعم السكر



الإهداء..

إلى جميع الجبناء المنتقمون بالخفاء

إلى الصامتون عن الحق باسم الولاء

إلى ذلك العاشق الذي غادر بكل غباء

إلى تلك العاشقة الوفية الحمقاء..

إلى جميع الأحبة والأصدقاء والأعداء..!

سئمت الحقيقة..

فما زلت أعرف أن الحياة

ومهما تمادت سراب هزيل

وما زلت أعرف أن الزمان

ومهما تزين.. قبح جميل

وأعرف أني وإن طال عمري

سأنشد يوما.. حكايا الرحيل

وأعرف أني سأشتاق يوما

يضاف لأيام عمري القليل

ونغدو ترابا..

يبعثر فينا الظلام الكسيح

ونصبح كالأمس ذكرى حديث

تراتيل عشق لقلب جريح..

.

.

فاروق جويدة

في صخب ذلك اليوم شعور بارد وبعض حلم محطم أمام نافـذة القـدر بقايا ماضٍ وبعض أمنيات كانت على وشك العبور أمام مخيلة الحقيقـة.. لوم عن بعد خلف باب موصد.. نحنُ نعيش على فوهة بركان ما أن تثـور سنهلك جميعاً، لم أشعر قط أننا بخطر.. لا أذكر أن يوماً من الأيـام كـان ثقيلاً مقيتاً..!

لم أشعر لوهلة أن الحقيقة قد تكون أشد خطورة مـن البركـان الثـائر الذي نسكنه..!

أحياناً تكون ثورة المشاعر أشد وطأة من ثورة الطبيعة

لم تختلف المسميات بقـدر مـا اختلفـت الأحـداث.. سـاعة الـزمن لم تقف عند هذا الحد.. وشـعور عـدم الأمـان كـان هـو الأمـان بـأن لا أمـان هنا..!

لغز حيّر الجميع إلا أنا.. كنت مؤمنـة أن مـا يحـدث هـو نتـاج مـا جنته أيديهم.. فبعض الكوارث تكون بـسبب جهلنـا.. والـبعض الأخـر بسبب تجاهلنا.. والكثير منها قدر مكتوب وبلاء حتمي وامتحان نثـاب عليه..صبراً.

لذلك كان لزاماً علينا أن نترك اللـوم ونعـود بالأحـداث مـن أول يـوم كانت الحكاية أو بإمكاننا تسميته الـ (انتقام)!

كنا أسرة متكاملة.. لم نتوقع عبور ذلك الغريب الذي كان يخجل من

العبور أمام سور المنزل القديم ظناً منه أنه ينتقص من مقامه المبجل..

فنسس طويل القامة أسمر البشرة كان يمشي منتصب الهامة رافعاً عنقه لأعلى السماء.. لم يكن ينظر إلى الأرض لأنه مؤمن إيماناً داخلياً أنه أحقر من ثراها، كان صامتاً يحتفظ بآرائه لنفسه، طرق الباب مبدياً تودده.. في الأسبوع الأول والثاني والثالث ولمدة شهر، لم نعره اهتماما فنحنُ في بيت العائلة ومن ضمن الطقوس المقدسة لدينا استقبال الغريب والقريب، لكني بتمردي المعتاد لم أتقبل وجود غريب لدينا، وأقصى ما يمكنني فعله عدم إكرامه وبكل بساطة وقناعة لأنه لا يستحق.. هو شعور فردي لرفضه، علاوة على أن ذلك لم يحدث فقد قام الجميع بإكرامه، لا أعلم إن كان لي الحق بالرفض..!

كثيراً ما تمنيت أن تكون لي الصلاحيات لفعل ما لم أستطع فعله، كم وددت أن تكون لدي القوة السلطة.. أي أمر أواجه به ما يحدث دون تردد.. كنت أنتظر لحظة زمنية فاصلة، أؤمن أن الحظ قد يأتي بلحظة.

أيدٍ تمتد من الجانب الآخر للعالم وتزج بي في دوامة الصراع، لقد تعبت وأخشى أن أقع في منتصف الطريق، لا أجد من أخبره أنني بلغت من التعب أقصاه

بلغت من الخيبة أعلاها، أنا مُرهقة بودي لو أنام بعينين شاسعتين، تعبت من كوني سمكة تنام بنصف عين، وإن نمت بعينٍ كاملة كذاك

الظالم غير آبه بما فعل، لن تكون نومتي هنية كما هو.. لن يكون السبات هنا إنسانياً بينما صوفيا هناك تتلوى ألماً.. أريد أن أنام في مكان ما لا يتهددني في ليله صوت قابع من أعماق صوفيا (تريد لكم الهلاك.. ريب المنون كتبته لكم)

أريد أن أنام دون أن أستيقظ مرعوبة مدهوشة لأخبر أمي عن غوائل الليل الذي كان..!

ما أتمناه تصرفٌ حكيم يجتثني من هذا العناء والأرق والصخب الصامت المؤدي للصداع، تصرفٌ إنساني عابر يتحسس عمق المأساة يشعر بكوني لحاجة لأن أغفو بسلامٍ بعيداً عن برد الشتاء وتلك القلوب الحمقاء المليئة بالبغضاء.

أيها العالم المتحضر، متى ستغادرنا آخر نفاثة تعقد العقد.. وتقرأ الطالع وتستعين بالجن وتستعيذ من كل طيب يؤمن بيوم الحساب؟!

أيها العالم المتحضر، هل ما زال لدينا من يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون..؟!

هل ما زالوا يقرصنون العفاريت ليمضغون اللحم، ويشربون الدم..؟!

أيها العالم المتحضر، هبني بعض تحضرك المزعوم، وانهي وحشة جهل مُدعاة باسم الحضارة..!

أيها العالم المتحضر، أنا جاهزة للتطور لأكون ريموتاً.. تلفازاً..

أيفوناً..!.. فقط أريدك أيها العالم تأخذني للتحضر بعيداً عن تلك الخزعبلات.. عن قراءة الفنجان وضرب المندل..

سيتذوق يوماً هؤلاء الجهلة لذة التحضر بمفهومٍ بعيد كل البعد عن الضغينة التي أودت بتحضرهم قاع الجهل.

منذ ليلة البارحة وأنا أتجول أرجاء المنزل فاغرة الفم من فرط ما ضحكت، رغم أن الأمر يزداد سوءً ولا مجال للضحك في أجواء كالتي أنا بها، أقهقه فحسب.. وأختي بالجانب الآخر تبدي تعجبها.. ظناً منها أن عقلي لم يعد بمكانه لأني وببساطة بالغت في دخولي بحالة من الضحك الهستيري.

نظرت صوفيا بابتسامة لكن بوهن من أثخنه التعب، لم تنم ليلة البارحة صداعًا.. (حضور).. فحضور كان المسمى الذي تطلقه حين تحس بوجود صداع وحالة غير طبيعية.. لم تكن صوفيا تخبر أحداً أنها يائسة.. تحاول اصطياد الأمل وإن كانت في رشفة شاي بلا نعناع، كان يبدو وكأنها تثبت للجميع أنها لم تندم لرفضها فنسس وفعلاً هي لم تندم.. كل شقيّ بهذا العالم لم يندم لسبب ما على من أشقاه موهوم من يعتقد أن الدنيا ستقف عليه وإن أحضر عاموداً ليربط به ضحيته ليجعله يندم فهو حتماً ندم قسري لا حقيقة له ولن يشعر المجرم بلذة الانتصار.

كنت ومازلت أمقت الأوهام المتحاذقة.. وأمقت التدخل بالنوايا.. وما

تقصده أنت وما كنت أنا بصدد فهمه.

أنا لم أعلن نفسي يوماً سفيرة للنوايا الحسنة ولن أفعل

ثم أنه ما الذي يجعلنا نحسن النوايا وأمامنا هذه النماذج الحية مُحاوِلة إذلال الكائن الصامت فينا..!

الأب طوني والأم ميرا والابن مايك. كانوا أشد اهتماماً به من صوفيا وإيفا – التي هي أنا – حيث كنا رافضتان حضوره رفضاً تاماً.

فهو الغريب القريب ابن أخت ميرا وابن أخ طوني.. فكان لزاماً عليهم إبداء مشاعر الترحيب والتعظيم، وإظهار الفرح والسرور، كانت محاولة عائلية فاشلة لإثبات أنه شخص مرغوب به وأن زياراته تلك بمثابة الشرف العظيم.

بدأ خالي – ومن حولها– يلحون على صوفيا بالزواج ويعرضون عليها الخطاب كما لو كان الزمن سيتوقف إن هي لم تتزوج الآن.. كانت وبكل ثقة ترفض أن تكون سلعة رغم المغريات التي تُقدم لها من حيث ثراء الخاطب ومكانته الاجتماعية.. فهي تؤمن بأهمية القبول والتوافق وكانت رافضة فكرة الزواج لمجرد الزواج ولمجرد إسكات تلك الألسن المتحدثة.

قال لها خالي جوزيف وهو يحاول إقناعها بفنسس: لن تجدي رجلاً مسؤولاً مثله.. سيلبي جميع مطالبكِ.

أدركتُ حينها أنها ليست مجرد فكرة.. هو أمر بالموافقة والقبول ورغم أن الرأي الأول والأخير سيكون لها إلا أن رفضها سيجعل الأمر يبدو تحدياً.. أيقنت صوفيا ذلك.. وحاولت إبداء قبولاً مبدئياً كنوع من الاحترام وعدم التهميش.. هنا كان يجب على صوفيا اتخاذ قراراً مصيرياً دون ضغوطات.

فأبي وكعادته لا يحب التدخل بتلك الأمور المصيرية كونه مقتنع أن خالي يتمنى لنا الخير وأيضاً يرى أن لنا تفكير سليم ولن نخوض أمراً إلا ونحنُ بكامل قناعتنا..

و رغم ذلك كان وجه خالي يتضرج عندما يتحدث أبي بالموضوع، يحاول بشتى الطرق تغيير الحديث لحديث أخر لا علاقة له بموضوع فنسس.. رُبما لأنه يعلم بنوايا فنسس المبطنة وقد يكون خوفاً من تحمل مسؤولية ما بعد القبول..

و أمي لم تكن أكثر تدخلاً من أبي.. فقد التزمت الصمت من باب أن لكلٍ حياته وتفكيره.. لم تبدي موافقة أو رفضاً، كانت تتابع الأحداث عن بعد وكأن الأمر لا يعنيها كثيراً، وكوننا اعتدنا صمتها وعدم تدخلها.. لم يكن الأمر مقلقاً.

حاولت صوفيا التريث والاقتناع بكلام جوزيف..

حاولت النظر للموضوع من زوايا كثيرة لعلها تقتنع.. حاولت مغالطة

مشاعرها والواقع، لكنها لم تستطع مغالطة الحقيقة.. أن فنسس لا يمكنه أن يكون شريكاً لحياتها.

فقد كان فظاً.. غليظاً.. متجهم الوجه بالكاد يبتسم، و إن ابتسم يلوم نفسه ألفاً.. كان وبرغم مديح الآخرين له لا يبدو مغرياً كفرصة جيدة بأن يكون ذلك الفارس المتأمل..

تم الرفض مع الكثير من الاعتذار لخالي ولفنسس..

و من هنا بدأت الكارثة..

في أحد تلك الزيارات وتحديداً ظهيرة سبتمبر، أتى فنسس حاملاً صندوقا يحوي أفخم أنواع العطور.. مسك وعنبر وياسمين.. غير أن عفن قلبه كان أقوى فتكاً من تلك العطور الصناعية.

كان برفقته جوزيف، وهو أخ لميرا وخال لفنسس أيضاً.. شخص لطيف محبوب يفعل الخير كثيراً لا يتوانى بتقديم الخدمات لمن يعرف ومن لم يعرف غير أنه يحمل مشاعر ود غير منطقية بمحيط المشاعر العائلية لفنسس.

دون مقدمات وجه عبارة لميرا ومايك متكئ بأخر ركن من المكان (ما الذي حصل بالطلب الذي تحدثت به معك)؟!

نظرت ميرا إلى فنسن متأملة نظراته الخبيثة كانت تعلم ان سؤال جوزيف كالرصاصة خرجت لتصيب في مقتل.

فقد كرر الطلب مرارا وتكرارا وكان الرفض دوماً أقرب من السؤال.. كان جوزيف يعلم وفنسس أيضا..

حاول مايك تمالك نفسه معتمداً على رد ميرا والدته والذي كان كقطع ثلج في صقيع البرد..

كانت راحة فنسس بالنسبة لميرا أهم من أي إجابة وأي كلام سيقال، فهو الشاب العاقل الرزين الذي تتباهى به العائلة فهو مثال للرجل المسؤول والذي لا يضاهي رجولته شاب من العائلة.

و كعادة المطبلين يتميزون بتضخيم الجاهل الفارغ، وهذا ما حدث بالفعل.. كان تضخيما بلا وجه حق.. أدى لخلق شعور بالكمال لدى ناقص الثقة..

كان رد ميرا (سأكون سعيدة إن أنت أصبحت زوج ابنتي وابن أختي في آن).

تبع ذلك شرر من الغضب من عين مايك دون النطق بحرف، فهو يعلم أن صوفيا لن تقبل بفنسس خادماً يحمل لها أدوات الرسم التي كانت تعشقها بجنون، فكيف به شريكاً لحياتها..!

طأطأ فنسس رأسه مبدياً خجله.. مُصطنعاً نظرات امتنان باردة..

كنت على وشك الانفجار.. كنت أود الصراخ.. تمالكت أعصابي التي كنت أخشى أن تفلت مني في أي لحظة (أعتقد أن هذا الطلب تكرر مراراً

وأرى عدم الخوض به أفضل)!

_جوزيف مبدياً اندهاشه: لماذا!؟

كان فنسس يجلس بجوار النافذة يحاول استنشاق الهوا وكأن الأكسجين انعدم من محيطه..و رغم ذلك حاول وبكل خبث عدم التهور والرد على حماقاتي وانفعالاتي الواضحة..

(يستوجب عليكم التفكير فالعجلة قد تثير الندم في مقبل أيامكم) هكذا بكل ثقة كانت كلماته.. (لا تقلق لن نندم وإن ندمنا لا تلتفت إلينا).

نظر فنسس بخبث وأطلق قهقهات متملقة تثير الاستفزاز والاستهزاء بآنٍ واحد (أخشى أن يكون ذلك كبرياءٌ أرعن.. حاولي إقناع صوفيا بضرورة الموافقة فأنا من الرجال النادرين حقاً.. أقولها ليس فخراً كوني أنا، لكني نادر صدقيني.. قولي لها أني نادر).

نظرت إلى أمي وهي تحاول لفت انتباهي لضرورة مغادرة المكان، وكعادتها حاولت أن تطلب مني كوب من الماء لتضطرني للذهاب.

نظر جوزيف بتودد (وأنا كذلك أحتاج كوب ماء والكثير من الشاي) بدا كأنه قرأ بعيني ما أود قوله (حاضر).

بصوتٍ مبحوح (أعني ما قلته أحتاجُ كوب ماء وشاي على عجل.. أسمعتِ؟.. على عجل) لم يكن هذا ما يود قوله ولكن حاول إيهامي أني

موهومة..

و بعيداً عن تلك الأجواء الصاخبة.. على الجانب الآخر، نتالا.. تلك اللغم المفخخ والذي كان من المفترض أن يعلن انفجاره في أي وقت وأي زمان لعلها كانت أكثر من ذلك، فالدمار الذي كانت نتالا المساهمة الكبرى بتنفيذه بكل براءة مدهش ومباغت، فهي التي كانت تلعن النفاثات بالعقد وتدعوا الله أن يخسف بهم الأرض.. من يستمع لكلماتها وهي تكاد تبكي " لا يدرك لوهلة انها كاذبة..!

الأكثر فداحة من ذلك عندما يأتي مساء الجمعة ويكون الحضور أقوى.. الحضور هو المسمى الروحي الذي تطلقه صوفيا على (تعبها.. وخُدام نتالا).. كانت نتالا تحمل ملامح قاسية نظراتها مخيفة كانت تخرج سهاما خارقة بلا قوس.. حاولت مغالطة ظني بها.. لكنها بكل حقد تحاول إثبات ما هو مثبت.

تحاول إقناعنا بما نحنُ به مقتنعين، بصوتٍ يحمل الكثير من الخبث:

_ فنسس أحمق.. سيء.. متغطرس.. يكيدُ لكم المكائد.

_ كيف ذلك؟

_ كما قلت لكِ..هو يكيد لكم المكائد ريب المنون لكم يتمناه.

_ ومن قال؟

_ هو من قال

_ ولما قال؟!

_ لأنه طلب مني نفث العُقد وعقدها.. طلب مني ضرب المندل، طلب مني معرفة الطالع.. طلب مني أن أعرف ما لا يُعرف وأن أقول ما يُقال ليفعل ما يُطال.. هو يريدُ انتقاماً..

نظرتُ بشغف محاولة الاستفسار:

_ وأنتِ ما مصلحتكِ؟ ما الذي ستجنينه من كل هذا؟

ردت بابتسامة ماكرة (لا أريدُ أذيتكم).. لم يكن كلامها منطقياً حاولت تصديقها.. دون جدوى..

أدخلت يدها في حقيبتها المهترئة وبشكلٍ مفاجئ أخرجت خاتماً ذهبياً..

_ تفضلي

_ ما هذا؟!

_ عربون محبة.. بداية ود..

_ شكراً جزيلاً لكِ.. أخجلني ذوقكِ

_ لا داعي للشكر

ابتسامة باهته تحمل الكثير من القلق بعثتها لها، و الأفكار في

راسي تحوم كأسراب الحمام التائه في فضاء هذا الكون والتي لا تكاد تقف كما تفكيري..!

_ ما بكِ؟!

_ لاشيء عزيزتي..

أظهرت إعجابا مبالغا بهديتها التي لم تكن لها مناسبة مقنعة. غادرت نتالا.. كانت السادسة مساءً.. كلامها كان كصرير الجنادب يدعو للقلق لكنه غير مؤثر.. كان من بين كلماتها كلام يجلب لك الضحك دون أدنى تفكير كقولها بكل ثقة أن ذلك الخاتم عربون محبة وود..

حتى وإن كانت كلماتها صادقة، الخبث الذي في وجهها كان يومض بضغينة محتشدة بعدائية وانتقام، غير أن نظراتها كانت تبوء بإثمٍ مختبئ رغم محاولتها اصطناع موقفٍ لبق يوحي بذوقها وحبها.

إلا أن الموقف الصارخ والتودد المبالغ به يدعو للتهكم والخوض في تساؤلات قد تحمل إجابات مريعة.

بعد مغرب ذلك اليوم انقلبت حياتنا رأساً على عقب.. إحساس لا شعور، له تعب لا مبرر له، صوت قابع من أعماق صوفيا يصرخ.. (هي من فعلت.. هي من فعلت.. هو من قال)..

ألجمنا ذلك الصوت.. أدهشنا..!!

كان صراع ما بين مبدأ حسن النية وسوء الظن الذي ينبغي أن نظهره الآن وبمثل تلك الظروف، بالعادة نلقي باللوم على أكبرنا لأنه المتحكم والمسؤول والمتورط، لكن في تلك اللحظة وحين الفاجعة كان الصمت والدموع هي الحديث لا أعلم كانت بداية (إنتقام)..!

بعدما حدث من شدة التحليل لم أعد أستطيع التفكير.. كنا بحاجة ماسة لقرار يوقف تلك الكارثة أو المهزلة.. فليس من الممكن أن هامشًا كتلك النتالا تدير حياتنا وتستغفل ثقتنا التي منحناها إياها دون وجه حق.. المعضلة لم تكن بها بل بنا..

فالواقع كله غير قابل للتعايش ولا يمكننا بحالٍ من الأحوال ابتلاع الواقع بمرارته مع المرارة التي أتت بها نتالا متعمدة، إضافة لكون الوضع غير ملائم لكشف أمرها.. وبذات الوقت لا يمكن الاعتماد على الأيام لكشف سرها أو مواجهتها في يوم.

و بعد التغيير الجذري لصوفيا والذي حدث بعد مغادرة نتالا، كان السكون يعم أرجاء البيت كل يفكر بصمت..

غير أني نطقت بكل ثقة (خاتمها مُطلسم.. يجب فك طلاسمه)

أمي تنظر إلي بغضب (لا طلاسم ولا عقد.. استبدليه بخاتمٍ آخر.. فالأمر منتهي ولا داعي لاختلاق شيء من لا شيء)

_ حاضر.. كما ترين يا جنتي

_ حفظكِ الله وإخوتك من كل سوء

_ يا رب يا أمي يا رب.. وحفظكِ

حاولت إرضاء أمي وكلي يقين بأن الخاتم يحملُ لغزاً مُخيفا..

اشتهيت أن أكون طفلة تعشق المغامرة وبدا لها ما هو ليس حقيقي.

وبخطى واثقة حملت حقيبتي والخاتم الذي أطلقت عليه أختي (الخاتم الملعون) واتجهت نحو الصائغ.. قدمتُ له الخاتم كطلب لبيعه..

_ هل تشتري؟

_ نعم.

_ تفضل..

بدت علامات الدهشة على وجه الصائغ!

_ من أين لكِ بهذا الخاتم؟!!

بخوف ومع الكثير من اليقين:

_ لماذا؟!

_ لا شيء،ولكن الخاتم غريب وصياغتة أغرب..!

_ يعني؟!

_ يعني ماذا؟

_ هل ستشتري أم لا..؟

_ نعم سأشتري.

قبضت الثمن وبخطى متسارعة ذهبت للمنزل لأخبر أمي أنـي علـى حق، وأني لم أظلم تلك المرأة.. صمتت أمـي وكأنهـا لم تقتنـع، لم أنتظـر اقتناعها هذه المرة فكل الأدلة أمامي، ولـيس أمـامي سـوى الاعتـذار مـن استقبال نتالا.. رغم اعتراض أمي.

فأمي قالت لي يوماً أن الحناء للأفراح،غير أن صوفيا كثيراً ما كانـت بعد خروج نتالا وفنسس تضرب كفا بكف وكأنها تصفق مرددة :

يا حنة الأفراح خبري عن أفراحهم..

يا كفوف الحنة خبري عن افراحهم..

يا شمس جففي أفراحهم..!!

ومن ثم سقوطها على الأرض مغشيا عليها، فاقدة الوعي.. الدهشة لا تفارقنا.. سؤال يلـي سؤال ولا إجابـة لكـل مـا يحـدث، غـير أن نتـالا بخبثها تجيبنا عن بعض تلك الأسئلة بغبائها الذي تعتقـد بأنـه ذكـاء.. فكثيراً ما كانت تتحدث عن فنسس وأن كرمه حاتمي حد أنه أطعم جميع كلاب الحي كما روت نتالا، غير أن الوضع تغير تمامـاً حينمـا صـرخت صوفيا قبل مجيء نتالا بأسـابيع قليلـة.. الكلـب رينجـا شـرد.. الكلـب رينجا شرد..

صمت المقابر حولنا قاتل، وصوت نباح الكلب يملأ الفضاء، كـل هـذا

يجعلني على قناعة بأن نتالا على حق رغم محاولتها إخفاء الحقيقة فلا شيء أسوأ من ادعاء الفضيلة ورسم ملامح الطيبة تحت قناع الخبث، لا أرى ما يجبرنا أن ندعي ما ليس بنا.. صنع الفضيلة ورسم الطيبة الحقيقية، الأمر فقط يتطلب نقاء قلب وصفاء سريرة..!

لا أعلم بعد كل ما حدث ويحدث.. هل سنغفر لضمائرنا؟!..هل نستميحها عذراً..؟.. أم يجب علينا أن نتصالح مع ضعفنا وسوء إدراكنا..؟!

بالنسبة لي مازلت أبحث عن مخرج فالجبن بالنسبة لي خيانة للشجاعة.. ولا يجب علي أن أخون شجاعتي كي لا يخونني جبني..!

فنحنُ لسنا ملائكة لنعفو.. ولسنا أشرار لننتقم..

نحنُ نؤمن بأن الله أعدل العادلين، ولكن أن نُظهر التسامح لمن يبطن لنا البغض جنون سيؤدي بنا للهاوية.. فيصعب علينا مجاراة شياطين مهذبة

فهم وبكل دماثة أخلاق وبحيلهم الخبيثة يسعون لانتقام متآكل آيل للسقوط في وحل الخيبة.

فأنا أستطيع طرد أي شخص يحاول أذيتنا دون وجه حق، أقلها أحب أن أكون على درجة من الرضا عن النفس، حسم الموقف لدي أهم من أن أفكر في الضغائن و التي لن أشبهها يوماً.. فكلي يقين بأن ينتصر

المظلوم لحظة زمنية واحدة ستكون هي الفاصل، لإنقاذ أدميتنا من ذلك التوحش. يحدث أن تتخذ قرار يجعل لطريقك فرح والعكس، فقط هي قناعة بما نريد وإصرار بأننا سنفعل.

أدرك أن كل هذا يتطلب شجاعة، ينبغي لنا التنفيذ ومنح الجبناء إيماءة بأن أول الطريق خطوة..

قد يمنحك الصمت الهدوء في حال تخليت عن شجاعتك ولكن قد تموت خوفاً من أول نغمة موسيقى. لذلك يمكنك مساندة المغلوبين ومواساتهم كونهم جبناء.. تساندهم وأنت سعيد بقولك أنا سأفعل وأنتم حدقوا النظر لتنالوا شرف التحديق.

وبكل الأحوال اتخذت قراري ولسان حالي مردداً (فليحترق هذا العالم وليذهب إلى الجحيم)

الجميع اعتبرها مزاجية وتهور أرعن.. لكن ما حدث واحتمالية ما سيحدث جعلني أنظر للأمر بازدراء، فالتعقل مع عالم بليد..هو ظلم لنفسك ولهم..

كونك عاقل ومسؤول.. فعقلانيتك تحتم عليك التصرف مع هؤلاء المغالطين حتى وإن لاقيت الكثير من اللوم أو خارت قواك بشكل مفاجئ.

صوت هاني شاكر (*هو إنتِ لسه بتسألي*) ليست بأغنية، تلك نغمة الرنين الخاصة لنتالا وضعته استهزاءً بما حدث.. فنيتي بطردها شر

طردة كانت أحد أسباب هدوئي وانتقائي لتلك الموسيقى..

_ أهلاً

_ أهلاً بكِ

_ أنا قادمة لزيارتكم

_ عفواً.. ما عدنا نستقبل أحدا..

_ لماذا؟

_ هكذا.. دون أسباب.. هو قرار مزاجي نتمنى احترامه

_ كما تشاءون

_ شكراً

تيت.. تيت.. تيت..

لا مجيب.. أتمتم بغضب: لا يهم.. فلتذهب إلى الجحيم.. تلك الغولة لو لم أطردها لأكلتنا أثناء نومنا..!

انتهت حكاية نتالا عن قرب.. لكنها مازالت بشرورها تعبث عن بعد.. بضرب المندل كما تزعم ويزعمُ خدامها.

ليلة طويلة قضيتها بصحبة التفكير.. تركت جميع قناعاتي، طيبة قلبي، شكي يقيني وخوفي تركت تهوري، جرأتي.. جنوني وعقلي تركته.. تجردت من كل شيء إلا يقيني أن تلك المرأة تجاهر بأذيتنا..

كان لابد من اتخاذ قرار، رغم أن الجميع التزم الصمت.

و لكن ما الذي كان بوسعنا فعله ولم نفعل؟!!.. أنا من الذين احتجوا على تلك الفوضى وذلك التعدي، فأن تعرف ما الذي يحدث وتصمت ذلك خنوع يدعوا للازدراء، الصامتون أمام تلك الأحداث يحتاجون شجاعة كهل يحمل العمر والأحلام وهو على فراش الموت، فجبن طفل يمسك بيد كل عابر ظناً منه أنها والدته يجلب الخوف.. ولا يروي ظمأ تلك اللحظات البائسة.

لم يكن بوسعي حمل كل ذلك العناء وحدي، ولا أملك حق التصرف دون أخذ الإذن.. لكنني أتساءل كيف أنه من غير المعقول تجاهل ما يجري.. فأنا وبكامل قواي العقلية.. أدرك أن ما يحدث لا يجب أن يحدث، و كوني أتصرف بشكلٍ غبي أو متهور.. تلك إنسانية لا أُعاب عليها، غير أني ورغم ذلك فقدت ثقتي في من حولي وقرارتهم الهلاكية، ولقد سئمت حقاً من كون الحق صوته مخنوق.. والباطل وبكل بجاحة صخبه يعلو.. كلها أمور تصيبني بالغثيان، غير أنه لا خيار أخر سوى النظر بصمت وأقوى الإيمان الاعتراض.

حاولت فتح حديث قد يأتي بنتيجة..

_ أمي قلبك ندِّي وعطائكِ سخي.. ولكن لا يعني ذلك أن تتجاوز تلك الحمقاء حدودها وتخترق الغيب لتعبث بأقدارنا..!

أمي بهدوء..

_ (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)

_ سوء الحظ يا أمي والنصيب هو قدر، و لكن أن نترك تلك اللعينة تقتل الأمل وتعقد العقد ذلك خضوع لم أعتده ولن نعتده.. فأبي وبرغم بعده عنا.. منحنا شموخاً ولن تأتي بليدة مثل تلك النفاثة لتجعلنا نطأطأ رؤوسنا أمام خبثها..!!

_ صدقيني يا ابنتي قلب صغير يسكن صدر الإنسان كفيل بجعله يفعل الكثير من الخير.

_ وما أدراكِ يا أمي؟

_ هكذا هو الإنسان يا ابنتي ضعيف.

_ هناك شياطين على هيئة بشر يحملون قلباً أسوداً مليء بالحقد والغل والانتقام لا تغرككِ ابتسامتهم الصفراء..!

لم أستطع الصمت وأنا أرى أمي تبرر لهم شنيع فعلهم.

_ أمي والرجل الذي يفتعل الصدف والمناسبات ليلقي عليكِ التحية ويهديكِ عطراً مسموماً لا أحبه..

بدهشة تنظر إلي..!

_ من هو؟!

_ فنسس.. أصبح الآن لا يهـتم لأي شـخص فمنـذ أن قطعنـا جـذور نتالا من هنا وهو غاضب وكنوعٍ من العناد المستفز.. دومـاً أراه هنـا وهـذا يسبب لي الكآبة..!

_ أمي بصمتٍ وتفكير عميق (لا بأس سأتصرف).

_ قولي له أخرج ولا تعد أبداً.. وإلا سأفعل أنا..!

أمي بارتباك:

_ سأفعل.. سأفعل..

تحولت محاولتي لإقناع أمـي بـضرورة التـصرف إلى فـشل وإحبـاط، والقبول بزياراته ومقاصده اللعينة بات لأمـر واقـع وجـب معـه الـصمت وعدم الاعتراض..

الغريب أن كارثة بحجم ما يفعله ذلك الرجل لا يمكن الصبر عليه أو تجاهله ورغم ذلك لم يكن هناك أي رد فعل..!

و في يوم أخر من أيام الأسبوع.. وكعادته التي لم تكن عـادة، لا أعلـم كيـف اسـتطاع أن يجعلـها عـادة وكيـف أقنعنـا أنهـا عـادة ويجـب أن تُحترم..! جرس الباب.. ترن.. ترن

_ (من..؟)

_ (أنا فنسس)

أخي مايك بارتباك:

_ أهلاً أهلاً.. تفضل

يرفع كتفيه.. يتراقص في مشيته حتى قدماه بالكاد تلامسان الأرض بأطراف أصابعهما..!

_ أين قطعة من الروح..؟

_ من هي تلك؟!!

_ خالتي حبيبتي..

_ نعم.. حالاً ستأتي

بخطى أخي المتسارعة (أمي.. أمي فنسس)

و بخطى أمي المتثاقلة والخوف قد بدا على ملامحها وهي تتمتم (ما الذي أتى بتلك الجرثومة) ذلك اللقب الذي منحته له أمي منذ أن عرفت نواياه المبطنة.. ذهبت وهي بكامل تذمرها.. كان لسان حالها يقول: (حين تفكر في زيارتي أحضر لي معك حقيبة ضع بها كل الكلمات التي تريد قولها وعد بعد عام..!).. عد بعد عام أو لا تعد.

تك.. تك

_ من؟

_ افتح.. أنا جوزيف

أخي بسعادة بالغة وترحيب مبالغ

_ أهلاً.. أهلاً جوزيف تفضل.

بصمت أوصد الباب..

أمي مهللة مرحبة..

هو ببرود غير مفتعل

_ بكم أهلاً.

_ ما بك وكأن ركام عالمٍ على رأسك..؟

_ لا شيء.

_ كيف وأنت تحمل هم الدنيا بأكملها.

_ حقيقة لدي ما أقوله.. ولكن لابد أن تنصتي دون مقاطعتي.

_ تفضل.. أسمعك

_ أنتِ يا أختي مُتصالحة جدًا مع صوفيا وإيفا لا تجدي بهم عيوباً حين تفكرين بالبحث لهم عن عيوب لذلك أنتِ موهومة يا أختي وبناتكِ لن يكونوا يوماً زهر ياسمين.

_ بتعجب: ولما هذه المقدمة؟!

_ هي ليست مقدمة.. تلك حقيقة كثيراً ما كنت أود قولها وأتراجع، لكن لابد أن أبوح بها.. فأنتِ أختي وهن بنات أختي وواجب علي

النصح.

في نفسي أتمتم: أفادك الله يا خالي العزيز فأنت تأتي على هيئة ملح فيزيد الجرح في صدري ويستيقظ الألم وجعاً..! و أصمت مبتسمة.. أنظر لأمي بأن أجيبي نيابة عني..

أمي بلطف: أعلم أنهن ليس بمثابة زهر الياسمين و أيضاً لسن بحنظلٍ مُلقى على قارعة الطريق.!

جوزيف بغضب:

_ لكِ حرية قبول كلامي من عدمه لكن أقسم بالله أني أريد مصلحتكِ يا أختي.

_ كلي يقين..(لكن لا تحلف)

نطق جوزيف وببراعة محامي يدرك وبكل ثقة دلالات المعنى، كان اتفاقا بينه وبين فنسس ليس لأجل الانتقاص من شأننا، هي كانت رغبة بإعادة الطلب (طلب فنسس للزواج من صوفيا).

كان جوزيف المتحدث الرسمي لكونه الأقرب لأمي ولنا جميعاً، أمي وكعادتها..لم تنظر لتجليات الكلام الذي دار.. كانت تعتقد أنه ينتقص تربيتها كونها أعطتنا حرية الرأي..

أمسك فنسس بسيجارته المسمومة مُتحدياً الجميع.. مع كل شهقة

ينفثُ حقده وشروره بكل عنف أحـرق كـل معنـى للإنـسانية، بـشراهة منتقم يشهق سيجارة تلو الأخرى.. أطفأ أخر سيجارة ولم ينطفئ غـضبه بكراهية مختبئة يحاول رسم ابتسامة مصطنعة، يومها كانت أمي ولأول مرة غير مطمئنة لتواجده.. كانت تنظر له بعين الريب والشك وهو ينفث الدخان بكل إتقان وكأنه يعلن التحدي بصمت، كانت أمي تنتظـر سـؤاله المعتـاد عـن حالهـا، وحتـى اليـوم لا أعلـم الحكمـة مـن تلـك الأكاذيـب الاجتماعية والتي تختبئ خلفها كل الأحقاد، فـأمي علـى يقـين بأنـه لا يتمنى إلا أن تكون بأسوأ حال وهو يعلم أنها تعلم ذلك، ورغم ذلك تنتظر هي سؤاله وينتظر هو إجابتها بشغف، في الحالتين هي حرب أعصاب.. سأل أم لم يسأل..!

وفي الحـالتين الجـواب لا يهـم، فهـو علـى يقـين أن الإجابـة بكـل الأحوال.. ستكون (بخير). بالغ فنسس كونه مدخناً شرهاً.. رغـم أنـه ذات يوم لم يكن من المدخنين.. لكـن مهامـه الجديـدة تتطلـب منـه تلـك المبالغة.. اكتشفت ذلك بعد فترة من الزمن وبعد اعتراف نتـالا بـأن تلـك السجائر ما هي إلا سجائر محبة وجلب وتهيج.. هذا ما قالته نتـالا ولا علم لنا بحقيقة مزاعمها قالت وبكل ثقـة.. هـو يكتـب علـى ورق التبـغ بعـض الطلاسم ويلـف بهـا دخـان الـسجائر ويـشعلها ويتركهـا لتـأتي بمفعولها بالحال وهذا لم يحدث بالفعل.. فبإشعاله لتلـك الـسجائر هـو

فقط يلوث المكان بدخان ضار.. ولا حقيقة لمزاعم نتالا أو اعتقاد فنسس بكون تلك السجائر تجلب حباً أو تهيج قلباً..!

و رغم كل تلك الاعترافات من نتالا لم يكن هناك شيئاً مثبتاً وبذات الوقت ليس بإمكاننا نفي ما تقوله نتالا.. فهناك شيء غريب يحدث.. هناك أمرٌ يدعو للريب ويثير الشك، ولكن كيف لنا أن نصل لحقيقة ما يحدث؟!

رغم أن الواقع يحكي لكن كعادتنا نحاول مغالطة الحقيقة، أنا الآن أتذكر ذلك اليوم الذي قال فيه فنسس بكل حقارة " لمن لديه مفقود باستطاعتي إحضاره؟ "

كان الجميع يومها ينظرون إليه بسخرية كونه أراد اختراق العقول فقط الآن أدركتُ معنى كلامه مع الكلام الذي تؤكده نتالا.

أحياناً تبدو الحقيقة أمامنا جلية ولكننا نتجاهلها خوفاً أو جبناً.. وربما هي محاولة للهروب وقد يكون جبروت ذلك المنتقم هو ما يجعلنا نبدي ردة الفعل تلك كان فنسس يبدو كطاغية يلهو بمقصلة بلا رحمة.. فلا رحمة بجميع ما يقوم به..!

ثمة أحداث نقف عند عتباتها لا نستطيع التصرف حيالها فحقيقة ما يفعله ذلك الرجل يبقى مبهماً ولا حقيقة له فما يفعله هو كل ما خفي

ولطف سببه لذلك وجب الصمت.

صمت خيم بالمكان ونظرات.. فنسس نحو جوزيف وأمي، أخي مايك محاولاً تلطيف الجو..

_ هل لكم ببعض الشاي وقليل من السكر؟

جوزيف: شكراً لا أرغب بالمزيد من الشاي.

فنسس: وأنا كذلك لا أريد.. تروق لـي القهـوة وبـيني وبـين الـشاي عداء.

أخي بابتسامة باهته تحمل الكـثير مـن الـسخرية ويتمـتم في سـره: بينك وبين العالم عداء ونفسك أيضاً.

اغلب تلك الزيارات أمست مملة، شـكلٌ مـن تكـرار يـدعو للـضجر.. روتين.. وإعادة صياغة وحبكة تدعو للسأم عليـك تقبـل مـا يحـدث كـل أسبوع بأناقة، عليك ألا تعترض ألا تثور ألا تلوي البوز، عليك أن تفهـم أن ذلك واجب وواجبك أن توجب الواجب، عليك أن تبتسم بشكل مبهـر كي لا تحمل ملامحك شيئاً من الضجر أو البؤس عليك أن تبدوا راضياً كل الرضا، ولابد أن تحاول بطريقة أو أخرى أن تظهر الفرح في ملامحك وفي اعتقادهم أيضاً..!

الساعة الرابعة عصراً الباب يطرق.. يلتفت الجميع.. مـن الطـارق؟ أخي يهرول مسرعاً: من؟

_ بيلو.

_ أهلاً بك اشتقت لك يا خال.. حتى غيابك باذخ..

بيلو بإبتسامة متعبة: دوماً ذوقك يحرجني.

بخطى بائسة يجر قدماه متجهاً لأمي:

_ أهلاً اختي أهلا إشتقت كثيراً.

_ أهلاً بك لما تلك الغيبة..؟

_ قلبي يا اختي قلبي يؤلمني وكنت على وشك الموت.

_ سلامة قلبك وكلك لا بأس عليك.

فنسس وجوزيف..(سلامتك)

_ سلمكم الله وعافكم من كل مكروه.

يحاول إحداث ضجة مصطنعة تثبت أنه بخير

_ أين كوبَ الشاي؟

كانت أمي تميزه دوماً لحبه للشاي، تنتقي له أجمل الأكواب وأكثرها اتساعاً..

_ تفضل هاهو كوبك وهاهو المزيد من السكر كما تحب.

_ شكراً.

حديثٌ ممل.. نفاقٌ معهود.. كذبٌ مختبئ.. نظراتٌ غير مُطمئنة..

صمت يعم أرجاء المكان..

ينتابني أحياناً حس متفاقم بالدخول إلى اجتماعاتهم المشؤومة وإلقاء الشتائم ولكن السؤال الذي كان يراودني قبل المداهمة، هل يمكن لهؤلاء الجبناء احتمال زئير الأسد وسط غابة تحوي القطط والضباع؟!

أتساءل فقط: أتراهم على حق (صمت هؤلاء وصخب أولئك)؟!

أواسي نفسي على الأقل أنا وصوفيا لازلنا نقاوم.. وثمة فارق بين ضراوة ظالم ومظلوم..لوح جوزيف بيده مغادراً..

_ تريدين شيئا أختي؟.. سأذهب.

_ شكراً حفظك الله.

فنسس: وأنا كذلك أستودعكم الله.

بيلو: ما حالكِ أختي ما به جوزيف.. وكأنه لا يريد رؤيتي؟

_ لا شيء لكن لديه مشاكل.

_ أها مشاكل أعانه الله.. لكنني أخاه وبإمكانه إخباري كما أخبركِ..!

_ لا بأس لا بأس سيخبرك لاحقاً بالتأكيد.

بيلو.. بإمتعاظ " أجل.. أجل ".. سأنصرف هل تريدين شيئاً..؟

_ سلامتك..

_ سلمك الله..

ذهب الجميع.. لم يكن يوماً مختلفاً، ففي حال مغادرتهم صوفيا – وكالمعتاد – تشكو ألما إلى الآن لا نعلم علاقته بين الذهاب والإياب والحضور والغياب.. كانت لعنة تلك المرأة نتالا تتزايد رغم عدم حضورها و رغم اختفائها، أصبح ذلك الألم اعتياديا كحضور فنسس بلا مناسبة رغم أنه يملك بيتاً وأسرة.. لكنه مازال يتودد.. مازال يدس السم شهدا باسم الحب.. مازال يدعي حبه لصوفيا ورغبته بالارتباط، ورغم رفض والدته والتي هي شقيقة أمي.. كان يصعب على عقل تصديق تلك الأكذوبة التي يدعيها بين حين وآخر..

فالجميع يعلم عشقه لوالدته وأنه لها مطيعاً.

و نحنُ على علمٍ بإنه لا يحمل أي مشاعر عاطفية أو حتى إنسانية تجاه صوفيا، ولكن تمسكه الغير منطقي بأن يكون أحد أفراد هذه العائلة كان يستوجب التوقف والتفكير.. كان إصراراً يثير الشك.

رغم أن نتالا وضحت لنا جميع الأسباب وإن كذبت في نصف الحقيقة كعادتها المعهودة.. وأمام كلام نتالا وتصرفات فنسس استفهام يدعو للدهشة ويثير التوتر..

و في زخم تلك الأحداث وتسارعها، كنت وحدي هناك أمام لوحتي الكيبوردية أبحثُ عن شعوراً ينسيني شعور الانتقام غير المبرر من فنسس.. ووالدته وأخواته حتى نتالا زوجة أخيه سومو.. والتي كانت

تراه خائنا لأنه كان يعشق خالته التي هي أمي، كانت وبثقتها المفقودة تحاول قتل كل مشاعر يحملها لخالته، كانت تحاول الوشاية بينهم كي يكره خالته أو هي تكرهه.. سومو والذي هو أخاً لفنسس كان مسالماً نوعاً ما.. لن أصفه بالطيبة لكنه كان طيب القلب مع أمي فقط ويقدم لها الخدمات، لكن يحمل حقداً بغيضاً لغيرها وبلا أسباب مقنعة.. تلك الخدمات أثارت جنون نتالا.. اعتقادًا منها أن تودده لأجل صوفيا.. فهو يوماً ما كان يكن لصوفيا الكثير من المشاعر.. هي نفثت العقد حفاظاً على سومو فهو يصغرها بعشر أعوام وأكثر، ليس عذراً لنفثها بالعقد وليس مبررا لحقدها الذي لا مبرر له، كانت رغم خوفها على سومو إلا انها وبكل جرأة تتغزل علناً بفنسس، لم يكن أحدًا يعلم ما يدور بأعماقها، أحيانا كنا نشكك بقواها العقلية، وأحيانًا نلقي باللوم على السن بأنه سلب بعض تركيزها..

أعود لي أنا.. كنت أبحثُ عن شعور صادق.. كنت أقنعُ نفسي بأن الحياة مع كل هذا الكم من الحقد لا تطاق كيف سنعيشها أو نستمر بها..؟.. أحياناً يجب علينا تجاهل الوقت، كي لا يستفزنا مروره ببطء، كنت أحاول الفضفضة لكل عابر سبيل.. لم تكن استجداء عاطفة بقدر ما كانت فضفضة.. كنت أحتاجُ بأن أحكي ما يدور أمامي فمن هم أمامي لم يدركوا حجم المأساة التي نحنُ بها، وأن تكون نتالا وفنسس ووالدته

وأخوته فعلاً يعقدون العقد كما زعمت نتالا.

كنت أحاول جمع جميع الآراء للحصول على حل لتلك المشكلة، ومع تسارع الأحداث وتعب صوفيا الذي طال قرابة الثلاثة أعوام، ابتداء اليأس والملل والرعب يتسلل لنفسي وكل من حولي، حاولت مغالطة واقعي دخلت في شعور آخر غير الشعور الحقيقي الذي كان يجب أن أتقمصه.. دخلت شعوراً عاطفياً لا يليق بالمكان ولا الزمان ولا الظروف.. لكن لم يكن لدي خياراً آخر.. كان علي أن أخبر الخيبات التي تطرق بابي أنني ما عدتُ أؤمن بها!؟

كان علي أن أرش العطر على الجرح، كي أبدو أكثر تفاؤلاً رغم الوجع، كنت أحاول أن أعيش شعوراً كاذباً.. كان سيرضيني الشعور الكاذب أكثر من تلك السخافات التي أراها على مسرح الحياة، كانت أشد كذباً من ذلك الشعور الافتراضي الذي عشته بيقين بائس وأنا أعلم نهايته والتي لن يختلف عليه عاقلان.

غير أني كنت أحاول التخلي عن عقلي لأعيش نصف شعور، ومع التخلي عن عقلي.. أحببته بجنون أوقات طويلة كنا نتبادل أطراف الحديث والذكريات والمشاكل محاولين إيجاد حلولها، في لحظة انهار كل ذلك..!

لم يتبقى سوى بعض أحرف قد تكون عتاب..

_ (اسمعني.. أدم لابد أن نلتقي فلدي كلام أخير.. لابد أن تسمعني طالما نويت قتلي، لي الحق بتمني آخر أمنية)

_ ولماذا التمني، نحنُ انتهينا ولكِ بالتمني بعيداً عني.

_ قلت لك لابد أن نلتقي.. لا بد..

_ سأنتظرك في نفس المكان.

_ حسنا.. آدم.. شكراً لك.. ولكن كان بإمكانك أن تكونَ لطيفاً، على الأقل لتعفي قلبي من هذا العناء.

ما من شعور يمكن وصفه هي خيبة حد القنوط، لم أصدق أننا سنفترق تشظى قلبي ألماً بخطى أشبه بالزاحفة أخطوها لذلك الموعد وأنا التي كنت بكل غنج وكبرياء أسير لمواعيد غرامنا، لا زلت أحاول ابتلاع صدمة الفراق كل شيء سيتغير.. سيتبدل..!

أحاول أن أتمالك دموعي أحاول إيجاد طريقة لبقة أنهي بها اللقاء، لا أريده أن يكون وداعاً فقيراً.. أريد أن أودعك وداعاً يليق بسنين حبنا، قد انهي وداعنا بقهقهة.. قد تكون قهقهة وداع نتميز بها عن غيرنا من المحبين، لاني ودوماً كنت أختلق النادر والمتميز معك، كل العاشقين قد يجدون تفسيراً لفراقهم إلا أنا وأنت.. فراقنا غبي.. يثير الدهشة، لا يحمل أي معنى أو طعم هكذا كاللاشيء فراقنا، طقوس الفراق باردة.. جداً باردة.

_ القبح يا عزيزتي في دواخلنا في قلوبنا.. فيما نخفيه.. لأننا نـؤمن أنه أقبح من أن يُرى.

_ وهل شعرت مرة بالرضا عن تفاصيل قلبك وما تنويه ونويته؟!

أجاب بصوتٍ خافت.. (لا).

_ هكذا أنـت صـادق مـع نفسك.. فالرضـا لـن يكتمـل وأنـت نويـت الرحيل دون الرجوع إلي.. وكأنك عشت الحلم وحـدك، وقـررت تبديلـه بحلم آخر..!.. تخيـل ودون مقـدمات قـد تـرى نفسك وحيـداً وحولـك الكثير..!.. تخيل أنك ستودع حياة بأكملها..!

_ مُتعِبٌ جداً أن نتصيد كل زاويا مشاعرنا، مُتعبٌ أن نـضحي حتـى أخر لفظٍ بأنفاسنا.. إيفا.. كيف نستمر والشعور ما عاد يجدي هـو يبكـي فقط.. يتلف الأعصاب ويأخذ العمر إلى اللاشيء.

_ لا تـبرر.. آدم.. أن تكـذب، تـضحك، تبكـي، تخـون، تنتظـر، تبحث.. جميعها شعور، لكن أن تقرر الرحيل.. هو لا شـعور.. مـوت.. تيه..

_ كي أكون صادقاً.. مللتُ.. من خيباتنا، ففي كل نزوة نعيد حكايـة فشلنا.. ترتدين الكبرياء وأتلحف الصمت.. ثم ماذا؟!

_ كل منا به جرح يواري به حباً أكبر، لكنك كاذب.. وجدت ضالتك

وقررت الرحيل مختلقاً أسباباً واهية وأعذار..

_ هكذا ينفذ الحب عزيزتي.. خيبات وجـراح ولوم وعتاب ثم صمت ورحيل..

_ هناك شرخ في كِـلِ شـيء حتـى المشاعر باتـت كاذبـة ينفـذ منهـا النكران بأبسط الأعذار ودون أسباب تذكر.

_ للحب ترنيمةٌ بائسة، تبدو كجرح نرتديها كقلادة بـاقي أيامنـا، فلا تبتئسي يا غالية لستِ وحدكِ محظوظة بجراحكِ.. مثلكِ أعاني..

_ تغويني الأعذار الكاذبة' طمعاً ببعض رضا.. فالدنيا فسيحة ورغم ذلك جمعتني بك.. جمعـتني حيـث لا يمكننـا أن نلتقـي يومـاً.. كانـت كريمة باذخة العطاء معي.. يكفيني شعوراً جميلاً معك كان.. رُبما كنت صـادقاً فيمـا قلـت.. فالـشعور لا يجـدي.. كـان يجـب علـي أن أتجنـب انعكاس المرآة كل مساء، فالصباح كفيـل بإيـضاح الـشحوب البـادي علـى وجهي و كان كفيلاً بنزع القناع من وجهك البارد.. و لأنـي مـن ناقـصات العقل ككل النساء لم أنتبه.

ابتسم بتجهّم، الابتسامة على وجهـه كانت تـؤلم.. فكـل الـذكريات التي ستكون مترتبة على تلك الابتسامة، أظن أنها ستكون ذكـرى مملـة سمجة مبكية.. ولكني سأتحملها فالحياة لا توهب مرتين ولا الذكريات أيضاً ولا أخر اللقاءات.. لا شيء يتكــرر لا شـيء حتـى الوجـع.. حتَـى

كلمة أحبك لن تتكرر.

مردداً.. بصوتٍ خافت:

_ نعم لا شيء يتكرر.

_ إذاً لما أوهمتني بحبك؟

_ لم أوهمكِ أنتِ من أردتِ التصديق.

_ ترى ذلك؟

_ لا أرى شيئاً ولا أريد أن أرى لكنها الحقيقة.

_ حقيقة ماذا؟.. أدم حبك جرعة كنت أقاوم بها بؤس واقعي أتفهم..؟

_ أنتِ من قلتي وليس أنا.. هي محاولة هروب من واقعكِ فلا تلقي باللومِ علي..

_ لاشيء يمكنني قوله أو فعله فقط كنت أردد ببؤس (سامح الله كذبة غلاك ووعدك وحلو الأيام)

_ لماذا سكتِ؟!

_ أفكر بالحب الذي كان يجمعنا.. الحب الذي جعلك قادراً أن تخون وتتركني لتغيب..!.. الحب الذي سيجعلك ترحل بعيداً دون عناء.. أفكر بحالي بعد رحيلك ووعودك.. لا أطلبُ منك أن تعود.. ولا

أتودد لك كي ترأف بحالي، و لكن كن أرقى من أن تنكر ما كان..!

بنبرة ساخرة: قولي قولي وماذا أيضاً؟

و الدموع تملأ عيني رافضة الخروج:

_ ما الذي يمكنني قوله؟!

_ قولي ما تريدين فنحن هنا لتصفية الحسابات.

والدهشة تكسي ملامحي: (تصفية حسابات)!.. هل ستصدقني إن قلت لك شيء ما احترق الآن دون دخـان، دون نـيران، لكـن شـيئا أليمـا حدث حَوَّلَ الحلم رمادا، شيئاً ما يتصاعد.. يبدو أنها روح منهكة.. قـد أكون أنا..!

بسخرية: نعم أرى حولكِ دخان.. سأطلب المطافئ.

بنبرة حزن.. مع الكثير من الخيبة والألم، محاولة استرجاع جميـع تساؤلاتي:

_ يوماً ما كنت أتساءل ببراءة.. أيهما أقسى أن تفقدني أم أفقدك!؟.. و ها أنت تجيبني.. وأنا أتساءل.. كيف تتركني وأنت الرجل الذي نبت من قلبه أمل ليصل قلبي. أنت من انتزع حزن السنين من أيامه، ووهبني الكثير من فرح، كيف بك الآن تساومني بـالوداع تلقـيني جثـة في وهـدة جبل ولا تعبأ بي..؟!.. ظلم أن تهديني الحزن لتفرد جناحيك وترحل..

كيف تتركني وحيدة.. كيف ترحل تاركاً خلفك بقايا إنسان وهبك حباً ولم يقل هل من مزيد؟!.. كيف تترك خلفك قصة عنفوان ومظالم ودمع حبيبة تطمئن عليك كل دقيقة؟!

قبل أن ترحل فكر في حبنا.. في نهايتنا.. كن رجلاً ولو لمرة، اتخذ قراراً منصفا بحقي.. وإن لم تستطع فتعلم كيف يختار الرجال أقدارهم، تعلم كيف تكون صادقاً..!!

أعاد وقاره المسلوب بعد ضحكة السخرية، والتي لم تكن تليق بوداع حبيبين أو فراقهما:

_ حبيبتي.. عزيزتي.. يا غالية.. بعض الخيبات مكسب.. وبعض الحب خيانة..!!.. و لأني أحبكِ أنا أخون..

بنبرة حزن أعمق من قبل:

_ أكرهُ أنّ أعاتبكَ كنوعٍ من العشم فتسخر مني.. أكرهُ أنّ أنتظركَ بلهفة.. وتُقابلنيّ بذات اللهفة قسوة..!

ينظر بصمت والذهول يعلو ملامحه والتي بدت بالذبول، وأنا بنبرة الحزن التي سيطرت علي أُكمِل عتبي..أو خيبتي.. وقد يكون عشمي وتوددي:

_ أنا لا ألومك.. أبداً لا ألومك.. وليس لي الحق بلومك.. لم يكن

بمقدوري أن أتجاهل إحساسي بصدقك، ولأنّك الشمس الساطعة في ظلمة هذا العالم، كان لزاماً علي أن أصدقك كان لزاماً أتفهم لِزاماً..؟؟

_ نعم أفهم ولكن ماذا علينا أن نفعل الآن؟!

أجبته مسرعة..

_ تألمنا بما يكفي..فزيف السعادة في قلوبنا لم يعد يُغري.. أليس كذلك؟!

ببرود مع الكثير من التفكير..

_ لا تلومينيّ إن قسوتْ.. وأعطيني عُذراً.. فالصحراء لا تنبتُ زهراً..!.. و أنا قاسيت وعانيت.. لا تطلبي مني المستحيل.

_ لن أطلب المستحيل.. لكن امنحني بعض وقت.. أحتاجُ أن أنفض غبار الكذب من أيامي، أحتاج أن أمحي الكثير من الأسماء وأتخلص من وجوه كثيرة..!!

_ هل ستمحين وجهي؟!.

_ لم أقصد ذلك.. ولكن يوماً ما أخذك الغياب.. أظنك تذكر؟!.. حينها أشياء كثيرة تحطمت وأنت تمارس الغياب..

_ مثل ماذا؟!

_ كقلبي مثلاً وكل الذكريات..!

_ قررتِ تجاوزي، أليس كذلك..؟!

_ بالطبع لا.. أنا قررت أن أتجاوز خيباتي.

_ كنتِ دوماً ترددين على مسامعي لن تتجاوز خيبتك ما دمتَ تحاول تجاوزها.. ما الذي جعلكِ تتخذين هذا القرار المعاكس!

_ هو ليس قراراً معاكس.. أحياناً نتباهى بخيباتنا.. فقط يتطلب الأمر شجاعة..!

بكل ثقة وجه سؤالاً خبيثاً:

_ إذاً أنتِ تتباهين بي؟!

_ ومن باب الاستفزاز أجبته: أنت حبيبي.. وليس خيبتي.

_ تستفزيني أليس كذلك؟

_ أحياناً أفكر بالتغزل بك.. من باب استفزازك ليس إلا!.. لكن حُبك مازال عالقاً في سماء قلبي.. مازلت ربيع العمر يا عمري.

تغيرت ملامحه تجهم.. أدرك أنها نبرة سخرية..

_ ما بك عزيزي كأن كلامي لم يُعجبك..؟!.. عليك أن لا تكون واثقاً من أي شيء.. حتى حبي لك (مجرد كذبة) لحين وداع. فأول الغواية كذبة نقية..!

نظر بدهشة..

_ ما بك تنظرُ إلي باندهاش؟!

_ لاشيء.. لا شيء.. أحاول أن أستعيد توازني..

_ لا يجب أن تحافظ على توازنك كثيراً.. (فالوقوع أحياناً راحة).

_ ثم ماذا..؟ قولي.. قولي..

_ ماذا أقول..؟! لا يكفي أن نثرثر يجبُ أنْ تصل كلماتنا كما ينبغي!

_ أها نعم صدقتي.. اقتنعتِ بالفراق إذاً؟!

_ الأمر يا عزيزي لا يتطلب مني قناعة هو خيار رضيت بخيره وشره، كنت أطمح لنهاية مشرفة و لكن أن تموت الحكاية.. (طاقة سلبية)!.. و أنت تعرفني جيداً.. أخشى الطاقات السلبية.

_ نعم أعرفكِ جيداً حد أني أفكر الآن هل فعلاً أحببتني أم..!

_ أم ماذا؟.. كنت أكذب مثلك؟.. قلها لا تخجل..

_ لم أخجل؟.. فأنا أحبكِ من كل قلبي..

مرددة: قلبك!!

_نعم قلبي..

بحماس: هل لي بطلب؟

_ تفضلي.. وإن أردتِ عيوني فلن أرفض.

_ شكراً.. عيونك دعها لترى حبيبتك الجديدة.. فقط هبْ لي قلبـاً..
كقلبك.. هبْ لي قلباً.. بطَعْم السُكَرّ.

_ تسخرين.. أليس كذلك؟!

_ لماذا اعتقدت أني أسخر..؟!

قد أرى قلبك قطعة سكر حقاً.. يكفي أنـك أحببـتني بـصدق.. ألـيس
كذلك؟

بخجل.. والكثير من الغضب: نعم أحببتكِ.

مرددة (ومن كل قلبك) أليس كذلك..؟

صامتاً لا ينطق..

_ ما بك أدم.. لما الصمت؟!

_ لا شيء.

_ إذاً سأخبرك أمراً..

_ قولي..

_ هل تعلم أني ربطت كل الأشياء السعيدة معك..؟

لم أكن لأتخيل سعادة وحياة جميلة مع غـيرك أو في بعـدك، لكـنني
الآن سعيدة جداً.. حد أني أشكر قرارك بالفراق والتخلي..

_ أنتِ تستثيرين غضبي.

_ لماذا؟

_ لا أعلم لكن كلامكِ مستفز.

_ أنا أصف لك شعوري كنت أعتقد أننا سنكون معاً حتى أخر العمر وسيسعني الوقت للبوح لك والحديث معك، أما الآن فأنت ستغادرني وربما لا ألتقيك مرة أخرى.. لذلك أود أن أحكي..

_ ولماذا تحكين ونحن سنفترق؟

_ تريد المغادرة غادر..!

_ بنبرة حادة (لا) ولكن مجرد سؤال.

_ بابتسامة (أنا لدي سؤال وأحتاجُ منك إجابة)

_ تفضلي..

_ أنت أشقيتنيّ باسم الهوى فهل حقاً هَويتنيّ..؟!

محاولاً تلطيف الجو.

_ سؤال أم قصيدة؟!

_ هو سؤال يا لطيف.. لا تخشى الإجابة و كُن صادقا.. ألا يكفيّ أنّ الحب كذبة..؟

مردداً: كذبة..!

_ نعم هي كذبة يا عزيزي.. وكانت أمي تقول لي مُحذرة: كلما

اتسعت أكاذيبهم ضاقت قلوبنا على تقبلهم..!

_ ماذا تعنين؟!

_ لا أعني شيئاً.. لكنها فلسفة راقية من والدتي الحبيبة.

_ حفظها الله.

_ وحفظ والدتك.

_ ما هذه الرسمية؟!

_ أنسيت أننا سنفترق؟.. لم نعد أحباب.. نحنُ مجرد أصدقاء لحينِ انصراف.

_ بمعنى؟!

_ بمعنى.. (وبعد تفكير) لا أعلم ليس لدي معنى بالوقت الراهن..

نظر نظرة حادة وبنبرة مرتفعة:

_ هكذا لن نعود.. ما بيننا انتهى، أليس كذلك؟!

_ أن تعود أو لا تعود لم تعد تلك قضيتي.. خسرتُ وطني الحقيقي يوماً فماذا لو كررت الفقد مرتين؟!.. هل سأنفى من المنفى للمنفى..؟

_ لماذا هذا البؤس يا غالية..؟

_ ليس بؤساً.. كل ما في الأمر أني أستطيعُ الاستغناء عن السعادة.. بإمكاني الاستغناء عنك.

_ عني؟!

_ هكـذا أنـت دومـاً.. ركـزت علـى الاسـتغناء، وتجاهلـت أنـك سعادتي..!

بابتسامة مغرورة:

_ إذاً أنا سعادتكِ؟!

_ أنت سعادتي ولَذة السُكّر بمُرّ الأيام.. أنتَ الذيّ أحببتهُ.. حُلماً.. فِيّ قلبيّ خبأته.. أُحبُكَ.. وأحْتاجُ لقلباً أخر غير قلبي ينصفك.. أُحبـكَ.. وليتنيّ أملكُ شَجاعةً.. لأمنعك من المغادرة، و لكن ما باليدِ حيلة يا سُكر عمري.

بصمتٍ ومع الكـثير من التفـكير والتردد والحيرة وجه سؤاله:

_ هل أخطأنا حينما أحببنا؟!

_ لم نُخطئ عندما أحببنا.. فشعور الحب جـداً جميـل.. الخيبـة في شعور من لا يملكُ شعوراً..!

_ ماذا تقصدين أني لا أملك شعوراً؟!

_ لم أقصد ذلك ولكن إن كنت تريد الحق، لم تكن بذاك العمق الذي توقعته، لذلك كان من السهل علي موافقتك على قرار الفـراق، غـير أنـي أحن لشعورٍ تمنيتـه.. ولم يصدق لكنه شعور.. يُجبر قلبي أن يبتسم.

_ إذاً كنتِ كاذبة؟!

_ بماذا؟

_ بحبكِ لي..!

_ ومن قال ذلك؟

_ كلامكِ..

بابتسامة تحمل الكثير من الخبث:

_ يهمك كلامي..؟

_ نعم بالتأكيد.

_ اعتقدت أنه ما عاد يعنيك.

_ بالتأكيد يعنيني.. ولدي سؤال إن كنتِ فعلاً أحببتني.. لماذا أحببتني؟!

بسخرية: سؤالك يحتاجُ لرفع قبعة، فأنت تعلم أنه لا يوجد بك شيئاً يدفعني لحبك.. و أعلمُ أنك أحمق.. تظنُ أني مازلتُ أُحِبُك، وأدعي عكس ذلك..!!

بغضب: (شكراً).

بابتسامة: (عفواً)..

_ مازلت تريد إجابة أم أنك اكتفيت؟

_ لا أريد.

_ لكني أريد.

_ قولي إذاً.

_ سأقول.. أحبك لأنك الورد الذي أزهر في قلبي اليابس.. لأنك الربيع الذي مرَّ في أمسي الحارق.. لأنك الصمت الذي خيم في ليلي الصاخب.. أحبك لإنك سرقت الحزن من نافذة الألم.. أحبك لأنك حطمت تماثيل البؤس بأيامي.. أحبك هكذا ككل المحبين بلا أسباب.

_ كلامكِ بلسم..

بسخرية مقصودة:

_ هل تريدنا أن نجدد التعارف..؟.. قد تحبني من جديد؟

_ ولما لا؟!

_ لأنك كاذب.

_ ماذا؟!!

_ دعابة.. دعابة.. لا تغضب لكني لستُ متحمسة (للتعارف) كنتُ أريدك.. والآن لا تعنيني..

_لا أعنيكِ؟!

_ ما بك تردد كلامي كالببغاء؟.. إن لم يرق لك بإمكانك الانصراف.

بغضب (لن أنصرف.. إن أردتِ الانصراف تفضلي).

بابتسامة: (كيف أنصرف وأنا من طلبت رؤيتك)؟!

صامت لا ينطق..

_ هل تعلم بأن العالمُ بأكمله مدينٌ لي بابتسامة سأُطالب بها يوماً..؟!

_ كيف.. ولماذا؟!

_ مثلاً أنت ؟!

بدهشة.. (أنا)!.. ما بي.!؟

_ نعم أنت.. من أنت كي تترك كل هذا الحب بقلبي وتنصرف..؟.. بشكلٍ عام نحنُ فقط بحاجة لِـ (إنسان).. يشعر بنا ونشعر به.. يتمنى لنا ما يتمناه لنفسه..!..و أضعف الإنسانية ألا يخذلنا،أمازال عندك شك أن العالم بأكلمة مدين لي؟!

بارتباك: لا لا..

_ ما بك..؟!.. أتظنني جننت؟.. مازلت بكامل قواي العقلية.. سأجن إن أردت.

_ نعم.. أحب جنونك.

_ وهي؟

بثقة: (تغارين)؟!

بجنون مقصود: أين حبيبتكَ.. كي أتغزلَ بها..؟!.. أريدُ أن أثبتَ لكَ أني لا أغار.. أنا فقط أموتُ غيظاً.

بارتباك وغضب..

_ ما هذا الأسلوب المستفز؟

_ عذراً لم أقصد.. كنت أحاول نفي الغيرة.. فأنت الآن حبيبها وأنا الغريبة..

_ لا داعي لكلامكِ المحبط.

بابتسامة بعد طول صمت وتفكير:

_ هل تذكر حبيبتك الأولى ؟!.. كنتُ دوماً أقول لك سَتظلُ تُحبك.. وسَتظلُ حاملة غصةً بقلبها، وسأظلُ تِلك الخاطفة التيّ بلا رَحمة.. سَأظلُ.. مَن أخذ منها حبيبها الذي هو أنت.. لنْ تنسى أنيّ.. سلبتُ مِنها الـ " هناء " الذي هو أنت أيضاً..!!.. كنت بكلِ برود تردد أنا أحبكِ أنتِ، هي كانت مجرد نزوة.

_ هي فعلاً كانت نزوة لأنسى قسوتكِ وجفاكِ.

_ هل تعلم يا صديقي؟.. يوماً ما رأيتك تظلم.. خطر ببالي يومها هل سأكون مظلومة معك!.. كنت على يقين أن العدالة لا يمكن أن تتجزأ؛

ورغم ذلك أوهمت نفسي أني مُختلفة.. لذلك أستحق أن أتجرع ظلمك برضا.

_ ظلمي..؟!

_ عفواً لم أقصد نعتك بالظالم.. و لكن كان يخيفني أنك لا تستطيع الوفاء بوعودك، كنت أخشى عليك من الوقت.. بأن يحين وتخون الوعد.

_ أخون!!

_ آسفة.. أقصد أن الظروف يوماً ستخوننا ونضطر للفراق، لكنك كنت شجاعاً.. حد أنك ضربت بوعودك ومشاعري عرض الحائط وستنصرف.

نظرت إليه مبتسمة.. لم تردد شجاعاً..؟!.. نظر بغضب..

_ ماذا تقصدين؟!

_ لا أقصد شيئاً.. (وبتنهيدة طويلة).. مُتعبٌ صوتُ الحقيقة لا يُمكن الإفصاح عنه.. قد تكونَ المُتهم نيابةً عن المجرمِ الحقيقي.. فيا رب إليكَ المشتكى.

_ أنتِ المظلومة وأنا الظالم..! أليس هذا ما تودين قوله..؟

_ كلا.. كل ما أود قوله أني كنت أظنك ضائع بدوني.. ضعتُ وحدي..!

_ ولما الضياع؟.. ستحبين بعدي وستكون حياتكِ أجمل.

_ سأفعل.. لكنني أبحثُ عني دون جدوى، كلي معك هنا.. قل لي بربك ما الحل؟!

بحنانٍ كاذب: حبيبتي إيفا خُلِق الحب لنعيش سُعداء، غير أن حبكِ منحني حياة باهتة.. يفوق بهتان الخيبة في قلبٍ بائس.. كنت أحبكِ.. جداً أحبكِ، كنت أفتعل الشعور في وقت كنتِ فيه لا تملكين أي شعور، أنا من أضعت قلبي لأجل من لا يملك قلب.

بكبرياءٍ مزيف: إذاً أنا من لا أملك قلباً..؟!.. لا بأس عزيزي ولكن أنّ أكونَ امرأةٌ صالحة لأجلكَ.. رياءٌ أرفضه! !.. لا أنكر أنك منحتني قلباً.. لكنك سَلبتني رَاحةَ ضَمير.. قد أوهمتني بصدق الحب وأوهمتني بالغد والقادم، كسرت عين الحقيقة، رسمت للأحلام معنى.. و الآن وبلا مقدمات قررت الرحيل..!.. بجبروت رجل..معلناً التحدي.

_ لا أحد يا جميلتي يمر بشوارع الحب رغم أن الشوق مازال يدعي الإخلاص..!

_ أعلم ذلك فأنا أحبك وأنا أعلمُ أنك كاذب.

بنظرة تحتد غضباً:

- كان علي أن أصفعكِ لكني لا زلتُ أحبكِ.. تلك حجتي الواهية.. حجة بليدة.. أليس كذلك..!؟

_ ألا ترى أنه بإمكـاني مغادرتـك دون اسـتئذان بعـد كلامـك الموقـع أدناه بصفعة، لكنكِ مازلتَ قلبي.. يا قلبي..

_ سنفترق.. نسيتي..؟!

_ لم أنس.. لكنك قلبي فعلاً..

بخبث: – لكن يا عزيزتي.. قيل: الثقة نِصف الحُب، والاهتمـام نِصفهُ الأخر.. فلا أنتِ تثقين بيّ ولا تـهتمين..!!

_ وما علاقة كونك قلبي بالحب؟.. هذا أمر وهذا أمرٌ آخر.

حاول كسر صوت العتاب بضحكة مصطنعة..

– هل لنا بطلبِ قهوة..

_ لا بأس فأنا بحاجة لقهوة وداع.. قد تدندن يوماً دون شعور..

رحلت وامتلأ صدري غيـاب ومـا قـدرت ألقـاك.. ويحـرقني حـنين الانتظار وغيبة ظلالك.. تركت الناس علّقت العيون بزاوية شباك.. وكـل ما مرني برد الليالي يقول ما جالك.. قد أكون يوماً أنا المقصودة.. ويسألك الأصحاب (ما جالك).. أجبهم دون كذب.. أنا من ودعتها!

نظر بغضب: (ما هذه الكآبة)؟!

بسخرية: ولما الكآبة يا عزيزي..؟.. هي مجردة قهوة وداع.

صمت.. وبنبرة متذمرة وجادة:

_ مللتُ هذه المثالية.. تعالي لنرتكب الأخطاء..!

_ وأنا مللتها أطلب لي أداة جريمة لأنفذ جريمتي.

بغضب: قلت أخطاء لا جرائم؟

_ القتل خطأ ولكنه كبير.. والخيانة قتل أيضاً لكن لا يعاقب عليها القانون..

_ أنتِ كئيبة..

_ وأنت كاذب.. وكأنك لم تفعل خطأً من قبل.. ها أنت سترحل ولا أجد أعظم منه خطأ..

هو بغضب (سأصمت.. سأصمت). ها هو طلب القهوة وصل..(تفضلي).

_ شكراً

_ عفواً

بخبث ونظرات مرتبكة محاولاً تجاهل الرسمية (أنا أحبكِ)..

_ (أحبكِ)..! خَائنة تلك الكلمة بِحضرة الواقع.

_ وأنتِ؟!

_ أنا التي وضعتك في أضلعها عوضاً عن قلبها..!

_ ثم ماذا؟!

_ ثم ندمت.

_ أوف.. كلما حاولت تلطيف الأجواء بكآبتك وعنجهيتكِ عكرتي صفونا..

باستغراب:

_ هل تريدني أن أتغزل بك مثلاً أم أتأمل عينيك وأروي حكايا حبي معك..؟.. نحن معاً نرتشف قهوة الوداع.. هل تعلم معنى الوداع..؟!.. الوداع أن لا أراك مرة أخرى، أن أشتاقك ولا أجدك.. أن أبكي فراقك وأعتزل الرجال جميعاً، أن أفكر فيك وكأن الكون الفسيح لا يحملُ سواك..!

_ أعلم.. الوداع قاسي.. ولكن ما باليد حيلة.

_ إن قلت لك أنا وقلبي نحبك هل سيغير شيئاً من قرار رحيلك؟

_ لن يغير يا عزيزتي فأنا سأرتبط وهذا الأمر ليس به تراجع.

_ وأنا..؟!

_ أنتِ السُكر الذي يذوب بأيامي.. فتصبح حلوة المذاق

_ وماذا بعد؟!

_ بكِ يشرق يومي.. بضوءِ عينيكِ

_ هكذا تثبت لي حبك؟!.. أتراني طفلة؟!.. أم غبية أم بلهاء أم

ماذا؟.. قل.

_ أراكِ حبي الذي كان ولا زال.

_ وما يحدث بيننا الآن من فراق ماذا يكون.؟!

_ قدر

_ ها.. قدر

_ ماذا تسميه أنتِ؟

_ أسميها نذالة..

_ بإندهاش مردداً.. (نذالة)!

_ نعم هي نذالة مع سبق الإصرار.

_ تفكيركِ جداً صعب.. ورغم ذلك أحببتكِ.

_ وأنتِ؟!

_ أنا المتعثرة بطرف كذبة..!

_ وماذا؟!

_ ماذا بماذا؟!

_ لم تجيبي على سؤالي؟

_ وأنتِ؟!

_ أنا الحمقاء التي مرّ بها الحب يوماً ولم تستطع العبور بسلام،

وقع قلبها.. ولم تعثر عليه..!.. أنا التي هزمت النعاس لتحظى ببعض سهر..!.. أنا التي يبتسم لها الحُزن كلما لمحها..!.. أنا المشردة التي تبحثُ عن نفسها خارج نطاق ذاتها..!.. أنا التي تبحثُ عن عينيك في أضواءِ السيارات..!.. أنا التي خَبئتُكَ بِحنايا روحيّ.. وإرتديتُ مِن الخوفْ رِداءً بخس..!.. تريد المزيد بسؤالك لـ (أنتِ) أم يكفي هذا؟!

بشيءٍ من البؤس والكثير من الإحراج والارتباك:

_ أعتذر.. لا أعلم ما الذي حدث ولماذا سنفترق..؟

_ مضحك أن تعتذر عن جرح قلب.. لا عليك الأيام كفيلة بالاعتذار لجروحنا. هل تعلم عزيزي على سبيل العشم، كانت تكفيني لهفة عابرة.. بلا صوت.. كان يكفيني حرف لم يُقال بعد..!.. أي شيء منك كان سينبُت بقلبي قلب.. و إعتذارك يكفي.. مادمتُ أحبك.

طأطأ رأسه بخجل.. لم ينطق.. وإن نطق ماذا يمكنه أن يقول، فلحظات الفراق مؤلمة وكل ما يقال فيها لا ينبغي تصديقه، حدقت بعينيه وقد كانت الدموع تطل منهما ولكن كبريائه منع دون نزولها..

بعد تنهيدة عميقة:

_ كنت دوماً تسألني عن سبب رفضي لاستمرار حبنا.. كنتُ أرفضُ أنصاف الأشياء.. أرفضُ(أحبكِ) العالقة بشفاه المجهول..!.. أرفضُ ضوضاء كلامك المجنون.. أرفضُ شعورك البارد.. كجثةٍ مُلقآة على قارعة

الطريق.. موجعةٌ لحظة القرار.. من طرفٍ واحد.. مؤلمةٌ لحظات النكران بعد نشوة حب..يقرُّ بنقصٍ بك يَا حبيب!!

غادر المكان دون رد.. أو استئذان..

وقع الكرسي.. وقعت القهوة.. غادرتُ ولا أعلم ماذا حصل هناك..

فما من طريقة ليقتص أحدنا من الآخر غير الفراق!!

أنا وأنت مثل متوازيان لا نلتقي ولكننا شبيهان كوننا خطان مستقيمان.. لا هندسة بيننا.. ما بيننا لا يعلمه إلا الله، أفكر مذهولة متسائلة: ما ذا لو أرهق جسدي بعض حنين..؟.. ماذا لو سألني الصبح عن لحظة الشروق؟.. ماذا لو راهن الليل بانبلاج فجرٍ جديد؟.. ماذا لو كنت تشتاقني وأنت هناك بعيد؟.. و أنا هنا أسكب السكر لأحزان المغيب.. ماذا لو استودعتك فرحاً بك يليق؟

ماذا لو أهديتك نبضاً وابتسامة وبعض ورد؟

أيها السائر دون وداع بلغ سلامي لمن بعدنا من الأحبة.. لأولئك الأوفياء ولذاك المنتظر خلف دياجير الدجى متأملاً قرب اللقاء.

عدت مسرعة للبيت أجر خيبات السنين وحب عمري المرير، كنت الوحيد الذي أتناسى به ضراوة الحياة.

في أخر زاوية أجلس القرفصاء.. لم أبدي استيائي.. هو بكاء قلب

وانتزاع لحن وصوت عاطفتي.. استعجلت الرحيل.. ورحلت في غير أوانك.. هنا خطوط أيديك.. صمتك.. صدى صوتك.. عنفوانك..

هنا ضحكت.. هنا بكيت.. هنا على صدري غفيت.. هنا تصاويرك على حائط البيت..

ها هو.. كل الإحساس.. صوت القلب يدندن يصف حال قلبي ويواسيني في رحيلك، يتأوه لأجلي تنهال كلماته بحنان، وأنت تعيش هناك بلا اكتراث.. لم تعنيك هاتان العينان الحزينتان، لم تشعر بجنون عاطفتي نحوك أو أنك شعرت ولكن الأشجار لا تبكي غياب الأغصان، ولم أكن سوى غصن في خريف عمرك وذبل..

صوفيا بقلق:

_ ما بكِ إيفا..؟

_ لا شيء.

_ كيف وأنتِ تبكين وملامح التعب قد بدت على وجهكِ؟!

_ لاشيء.. لكني أسفه لنفسي..

بكل حب احتضنتني رغم ما بها من هم وأنا أبكي وأصرخ:

_ كل خيبات العالم تنتظرني.. أذكر الوعد الذي ذهب أدراج الرياح.. و الحب الذي غادرني دون وداع.. و ذاك الحبيب الذي تبخر في

أول محطات السفر..!

و بحرارة ازددت بكاءً..

_ ما الذي حدث إيفا؟!

_ أذكر الربيع الذي أتى به.. و الخريف الذي خذلني معه.. والصيف الذي أخذه مني.. ذهب بلا عودة.. ذهب.

_ لا بأس يا عزيزتي.. حقيقةُ عمق الأشياء تندثر بحجم تجاهلنا.. ورُبَما تخاذلنا..!

حاولت تمالك نفسي ومسح دموعي رفعت رأسي بتحدٍ.. انصرفت مبتسمة وكلي ألم.

و رغم كل تلك الأحداث والشعور الذي سلبني كل شعور، مازال يقلقني يوم الجمعة اليوم الذي يحضر فيه فنسس لدس سمومه في أرجاء المكان.

نحنُ ليلة الخميس وغداً الجمعة وصوفيا جداً مرهقة، و الليل صامت والكون رغم سكونه يبعث بصخب غير مسموع، جنون أن أصف ما لا يوصف، كانت ليلة ثقيلة بثقل وداعي لقلبي وثقل زيارة الغد المعتادة كما أوهمونا بضرورة تقبلها كونها اعتيادية..

ظهيرة يوم مقلق كل شيء يدعو للقلق كعادة كل جمعة من كل أسبوع

قبل وبعد وأثناء كل زيارة..

ترن ترن..

_ من..؟

_ نحنُ.

أخي بترحيب حار كالمعتاد..

_ أهلاً أهلاً تفضلوا... أمي.. أمي جوزيف وفنسس هنا.

أمي بارتباك:

- ما الذي أتى بتلك الجرثومة..؟!

ذهبت أمي وكلها تذمر.. فقد وعدتني بطرده بطريقة حضارية، وأنا بانتظار الوعد فالوضع مزري ولا يحتمل أكثر..

_ أهلاً جوزيف.. ما حالك؟

_ بخير

تجاهلت فنسس كنوع من عدم الرغبة بتواجده.. حاول هو وكعادته الخبيثة خلق جو من الدعابة متظاهراً بعدم اهتمامه لما حدث.. جوزيف (بارتباك):

_ أريد أن أقول لكِ أمراً هاماً.

أمي – وهي تتمتم" الله يستر ":

_ تفضل..؟

بنظرة خبيثة:

_ قررت بيع بيت العائلة، عليكم بالمغادرة الفورية أو القبول بفنسس.

_ وما علاقة هذه بتلك؟

_ كما سمعتِ.. أستودعكِ الله.

ذهب متجهاً للخروج واتجه فنسس خلفه.. كانت تلك أخر زيارة.. كان خياراً جائراً.. مرت الأيام والشهور.. وقرار المغادرة معلقاً.. و بشكلٍ طارئ دفعنا مبلغاً من المال وتم استلام ملكية المنزل، كانت صدمة فنسس أكبر من كل تلك المخططات التي كان يقوم بها مع والدته سونا.

مرت أسابيع على تلك الحادثة..

لم تزل صوفيا تعاني..مازالت تصرخ.. وما زالت تحاول إقناع الجميع أنها بخير، تحاول خلق أمل كاذب فهو كل الذي لديها، تزمجر بكل ثقة أنا لم أعد أهتم، أنا لم أعد أهتم.

زوايا الجدران مكتظة بالجن وصفير الريح على غير العادة، فبعد مغادرة نتالا.. الأشباح وحدها من تسكن تلك الزوايا، وأنا بتلك الزاوية القابعة أخر المكان أتابع بصمت، ابحث عن ذاكرتي التي سقطت مني

قبل ستة عشر عاماً أبحث عن شيء يؤكد لي حقيقة ما قالته نتالا، أذكر رد خالتي سونا عند رفض ابنها مزمجرة:

" ستندمون.. ستندمون"..

أذكر يومها كنت أحادث نفسي قائلة.. (ما الذي سنندم عليه لم يبق ما نندم عليه، فالنافذة التي تطل على خيبة رسمتيها منذ سنواتٍ لأمي مازالت قابعة في ذاكرتها وانتقلت بشكلٍ لا إرادي لذاكرتنا.. وأن تأتي بعد تلك السنين تتضورين خوفاً علينا، من الندم تلك كذبة نقية لا تليق بالوحشة والهلاك الذي تنوين فعله).

أقف الآن على ذاكرة الزمن، أستعيد ذكريات مهجورة.. أفتح مخيلتي وبقايا أحداث قابعة من زمن الطيبة المفتعلة، تتهشم جميع الحسنات هنا فلا أحد يشبه نفسه في ذاك الزمان. ماتت الطيبة المفتعلة.. مات جارنا الطيب فعلاً.. تلك الطفلة التي كبرت كانت جميلة لكنها الآن ذبلت..!.. ذبلت بفعل فاعل لا فعل الزمن..!!

فخالي جوزيف يختصر الحياة بفنسس ووالدته سونا..

و خالتي سونا تفرض الحياة بكونها هي وابنها ولا أحد قبل ولا أحد بعد..!

وهنا أمي بصمتٍ يثير الضجر تنظر تاركة صوتها يبحث عن متحدث..!

فخيبتها بسونا جلية، كالذي يبحث عن أمل في خرائب شوؤم، كانت أمي تؤمن أن الكائنات المتوحشة تعود فقط لتنتقم، بينما شقيقة الروح سونا تعود لتُميت الاشتياق.. تعود لتكون جزءً من حكاية نساها الزمن..! ولكن ذاكرة أمي مازالت تستعيد الحكاية، ما زالت تحتفظ بالمتبقي من براثن تلك الخيانة الأخوية.. تستعيد تلك الكذبة التي كانت سونا وبكل براءة تخطط لمحوها من ذاكرتها.. أما نحن فقد تخلينا عن كل مغريات الذاكرة كما تخلت هي عنا..

لست متشائمة رغم كل تلك الخيبات التي مرت كعابرٍ متسول بثيابٍ رثة تدعو للأسى، لكنني فقدت الكثير.. و هذا أمر يثير الضجر، لا قريب يشد به الظهر ولا قناعة تكفي لتجاهل تلك الضغينة المُلقاة على عاتق اللاشيء.

فقط حشرجات صوفيا وأصابع قلقة منا جميعاً.. فالصمت عما يحدث يعني المزيد من هذا البؤس والمزيد من الرثائيات الصامتة بصخب..

صوت الهاتف يرن وكأن الهاتف غاضباً، فنبرة الرنين كانت ممتعظة.. أمي بخطى متثاقلة تخطو نحو الهاتف..

- أهلاً جوزيف
- أهلاً أختي.. لماذا لم تتركِ المنزل؟
- نريد البقاء هنا فهو بيت العائلة يصعب علي تركه.

- هو عناد إذاً؟!

- ليس عناداً لكنك أردت البيع وأنا اشتريت.

طوط.. طوط.. أغلق الهاتف..

بشماتة: ماذا يريد؟!

أمي بتفكيرٍ عميق:

_ جوزيف اتصل معاتباً بقائنا..!

_ لا بأس غداً يروق والأمور تصبح على ما يرام.

_ بإذن الله.

بعدها التزم الجميع الصمت فلا شيء يمكن أن يقال، فما حدث حدث بشكلٍ طاريء وسريع وغير مخطط له مسبقاً، بالنسبة لنا كانت كالفاجعة كالصدمة لكن تجاوزنا الأمر بسلام.

و هذا لم يعجب فنسس فهو قد أقسم أن نندم لرفضه، فمازال يكيد المكائد لأجل الانتقام.. لم يكن يخشى شيئاً كان بكل قوة يحاول هدم ما نبنيه.. حدث يوماً واتهمنا بالعقدة النفسية.. كانت تهمة مضحكة أمام تصرفاته الهوجاء.. فبيت العائلة وبكل فوضويته لم يكن ليتجرأ أحداً للاستهزاء أو السخرية من أحد أفراده وعلى من أراد الحديث عليه توخي الحذر، و لكن أن تتقمص شخصية صاحب المكان وتلقي بالتهم

كيفما تشاء، ذلك تعدي يحسب عليك لا لك.

على كلٍ لم تكن آرائه كثيراً تعنينا.. فكانت شهادة نتالا له بتحريضها للنفث بالعقد كفيلة باعتباره شخصاً غير مسؤول وعديم إحساس وبه عاهة لا عقدة.

مرت الأيام واختفى جوزيف وفنسس فما أراداه لم يحدث لذلك وجب عليهم البعد.. لحين حل..

يومان ويأتي العيد.. أحاول خلق جو من الفرح فالعيد فرحة.. كنا نحاول صنع الحلوى والبالونات رغم سوء حالة صوفيا.

صوت رسالة.. صوت قلبي مع الرسالة يزداد نبضًا.. أمسكت بالهاتف ويدي ترتجفان.. فتحت الرسالة..

(عيدٌ سعيد.. رغماً عن ذلك الوجه العابس

عيدٌ سعيد.. لتلك الإبتسامة المصطنعة

عيدكِ مبارك حبيبتي).

دون تفكير أرسلت..

(أنت عيدي، وفرح عمري..

و أنت أجمل ابتسامات الشعور وقلبي)..

__ أمازلتُ قلبكِ؟!

_ وإن لم تكن قلبي، فعيدٌ أخر بلا وجهك.. لا يُحتمل.. كان وجهك قنديلي حين انطفأ يوماً عيدي..!.. أبعد كل هذا لا أقول لك قلبي..؟!

_ أخرستيني

_ تستحق الخرس فكلامك دوماً يجلب الهم

_ إن كان هذا يرضيكِ سأخرس؟

_ بالطبع لا يرضيني فأنت عيدي

_ أحقاً أنا عيدكِ..؟!

_ نعم حقاً

_ لماذا لم تقولي ذلك من قبل؟!

- و لم أقول ما دمت لا تعلم ولا تشعر لن أقول.

_ كنتِ حزينة قبل عامين حينما افترقنا ذات عيد؟

_ بالتأكيد كنت أبكي كطفلٍ أضاع حلوى العيد

- كان بإمكانك أن تمنحني عيداً..!

لم تصل رسالة بعد تلك العبارة.. لا أعلم سبباً لصمته.. لم أسأل ولم يجيب.. أرسلت برسالة..

(سؤالٌ بريء في نهارِ عيد..!!.. جميع العاشقين يزورهم الحنين.. وأنت.. لماذا لا يزورك الحنين؟!)

فأنت هو سُكر العمر الذي مضى.. أنـت ليلـي الـذي يـذوب فرحـاً.. حزناً دونك طعم الأمل، غريبة بعدك..

تائهة..

أعاني..

أنادي..

أنت أين؟!

سكر العمر الحالي، لست معي الآن..!

حزني يعزف ألحان.. ينادي نبضك.. الخوان..

أنت أين..؟!

أما زلتُ سكر عمرك أم أن السكر ذاب؟!

(لم يجب أو أنه لم يستطع الاستمرار بالكذب)..

أنت معها.. تقضي العيد.. عيـدك وعيـدها مبـارك.. أنـا هنـا أمـوتُ وحدي ؛ لأني لا أجد من يشعر بـي.. حتـى أنـا مـا عـدت أهـتم لأمـري كثيراً.. قد يكون سبب ذلك أنك ضالّتي التي كلما أحـاول الوصـول إليهـا أفقدها وأعود وحيدة كما كنت.

لا يهم أنت كنت حبيبي وأما الآن فحبيبـها..

مر العيد بسلام مقارنة بأعياد مضت ، بسلام بشكل عام أما بالنـسبة

لقلبي فهو يحتضر بصمت..

الأيام الهادئة تلك التي تشعر بأنه ليس هناك شعوراً يحكمك.. تقضي يومك بين مزاج القهوة وسعادة شوكلاتة فيريرو روشيه، وهذا ما أنا به الآن.. صوفيا بعد طول صمت..

_ إيفا.. لا تتوقّعين أنْ تأتيكِ الأشياء الجميلة وأنتِ متشبّثة في التوافه وأول تلك التوافه من ظننتيه حبيبكِ..!

_ أعلم ذلك.. صوفيا.. وأنتِ لا تخجلي من التعبير عن حقٍ من حقوقكِ مهما كان هذا الحق متواضعًا في نظرهم، وتذكري أنهم لا يملكون شعوركِ، ولن يستشعرون غصة الألم التي لَحقت بكِ.

_ سأحاول ولكن الكذبة التي خبّأها جوزيف خلف باب الحقيقة إلى حين خلاف، لا تليق به كونه الطيب الحنون الذي يقدم الخدمات دون مقابل.. أليس كذلك؟!

_ جوزيف لا يعلم كونه طيباً كما يزعمون لكن أحمقٌ هذا الفنسس.. كمعتوهٍ.. لا يستطيع المحافظة حتى على ماء وجهه..!

_ لم نختلف كونه معتوهاً.. لكننا اقترحنا إيجاد حل.. فلم التردد أمام أول مشكلة؟!

_ هذه ليست الأولى صوفيا قد تكون الأخيرة ونحن مازلنا صامتون.

_ صدقتي.. فنسس تمادى وجوزيف كان المشجع الأكبر له.. هناك من يستحق الشكر لأنه طعنك..!.. و هناك من يمنحك الحلم في طعنة..!.. و لكن سننتظر لحين فرج.

_ ننتظر..

كلما كنت أتحدث مع صوفيا كنت أشعر بغصة، فتفاؤلها يثير الشفقة في ظل وجود هؤلاء المتآمرين.. فالوضع جداً مزري وخطير ولا تنبؤات لوجود شعاع أمل، ورغم ذلك الإحباط كان بوسعي رسم الأمل لي ولصوفيا، أعترف أني كنت أبالغ بكوني أتندر بالوضع الذي كان يدعو للبكاء، لكني وصلت لدرجة التشبع من اليأس وكان لابد من مواجهة كل ذلك برد فعل يظهر عكس ما هو كائن.

التضامن الإنساني في وضع غير إنساني مرهقٌ جداً.. ولكن الحياة تتطلب منا ذلك فالبائس الذي أسرف بالحزن اليوم يحتاج لفرحة يتيمة تشفي غليله من حزن البارحة، شخصياً لا أجد سوى المواساة مع القليل من الوجدان كي يمضي اليوم بسلام و تخيب ظنون الواقع.

انخرطت مؤخرا في كتابة رواية.. كانت محاولة لتفريغ طاقة من الأسى.. وربما هي محاولة هروب غير مجدية، كان تحولاً غير منطقياً نوعاً ما فالواقع غير مطمئن بينما الأمر يتطلب عقلاً ورؤية أكثر من الخيال..!.. لكن الوقت يمر والحياة تسير، والعمر يمضي كل لحظة من

بين أيامنا المتوجسة ومن الاستسلام النظر بصمت دون حراك..

كنت أود الخوض بقصة تشبه تلك القصة الخيالية التي كانت تشدني وأنا طفلة.. أبكي على الحسناء من الوحش.. كبرت وصدمتي بالوحش كانت جلية، فالوحش الذي كنت أخشى على الحسناء منه لم يكن سوى وحشاً نقياً..

يحب الحسناء.

لكن واقعي اختلف تماماً.. فخالتي سونا التي تدعي الطيبة أصبحت هي الوحش.. والوحش أصبح (ضحية)!

تبدو الأفكار متضاربة باعثة للتفكير تحتاجُ لشيءٍ من العبقرية، أو تحتاج للخوض بخيال فالوجع الذي ترسب في أعماقي من مصير صوفيا كان كفيلاً بتشتيت حبال أفكاري غير أن الصدمة بأن تكون مستهدف دون إثم ارتكبته.. أمرٌ يدعو للتوقف.

لكن وبشكل عام الكتابة أشبه بنغمة إنسانية، و إن كانت نابعة من حزن فهي شكل من أشكال الموسيقى الروحية تجعل الشعور يرقص حزناً أو فرحاً..

مرت أيام ومر العيد بارداً رغم محاولتنا باختلاق فرح، أمسكت قلمي لأكتب بكل حزن وأنا أحادثك دون علمك.. أحادثك وأنت هناك معها تعيش الحب والحياة..

تخطط لسعادة جديدة بعد أن تركتني أتجرع الألم وحدي..

لن أغفر لك وسأدعي الله يحرمك أجمل ما تتمنى..

كنت تتقدم نحوي، وكأن الزمن الذي جمعنا ما كان..!.. وكأنّ الحب الذي كنت أعيشه بكل إحساسي يصبح جنوناً، نهاية مأساوية لقلبين عشقا بصدق.. أو قلب واحد هو قلبي، قلبك كان كاذباً لو كان صادقاً ما رحل.

أُحَدِّث نفسي.. أين أنت لأقول لك أن الحب هو ذلك اليقين الذي يحدثه الشعور عند أول لقاء، الحب لا يلتقي فيه النسيان وصدق المشاعر، كان ينبغي عليك أن تدرس الحب جيداً.. كان ينبغي ألا تدعي الجنون وأنت في قمة عقلك وحدي المجنونة التي تبكي على الأطلال في ظل الوحدة، ووحدك العاقل الذي حظيت بحبيبة تحبك وتحبها، لا تخشى الأيام هي لن تنال منك يكفي أنك خسرت قلباً كقلبي..

مرت ذكراك بلا موعد..

تركت بعيني دمعة وبقلبي غصة.. ومضت..!

أتساءل كثيراً.. كيف مضى صوتك الشجي؟!.. أين ذهب قلبك الدافئُ؟!

أين أنت..؟!

هل يعنيك حبي دون بوح..!؟.. أمازلت لا تشعرُ بالذنب؟!

إذاً.. لماذا ما زلتُ ألوم قلبي؟!

ليت لقلبي صوتٌ مسموع.. أو ليت لقلبك إحساسٌ وشعور..!

ملاحقة الشعور تنهك الجهاز العصبي، وتتلف الأعصاب كأنني أتسول قطعة شعور فسياط الذل تُلهب قلبي، فالشعور من طرفٍ واحد لاهث برمته، تمضي الأيام وبلا مقدمات تجدك تعض الأصابع ندماً.. قد لا تشتكي البته لكن بشكل أو أخر تحمل شعوراً مغالطاً، ربما هو شعور داخلي أقرب للحقيقة، لكن ومع فوضى المشاعر التي نعيشها لا يتسنى لنا الوقت الكافي لنعرف كيف نسيطر على عواطفنا، أعرف من يملك شعوراً كاذباً ويعيش أصدق إحساس فالفارق البسيط أنه لا يوجد أحد في هذا الوجود يعيش ما لا يريده إلا لأنه وبكل بساطة هو يريد ذلك.

فنحن ورغم عنجهيتنا المزعومة نبحثُ عن مشاعر إنسانية أكثر من سعينا لنيل مشاعر عاطفية نحنُ بمختصر العبارة في نزاع بالغ الضراوة بين مشاعر صادقة تشقينا وشعور كاذب يعدنا بفرح..

أحياناً أفكر بانتزاع لهفة الشعور.. أفكر أن أكون منصفة.. وألقي باللوم وما يقاسيه أحدنا إلى روحٍ شريرة لا ندرك مداها أتت من غياهب الزمن لتلقي الجحيم في قلبينا وتمضي.

رغم يقيني بأني أفتعل مثالية لا تليق بك ولكني أحبك بشكل إنساني يجعلني أبحث لك عن أعذار الغفران والخلود بقلبي، ربما هو اعتداء

مني على كبريائي.. فلن أستطيع التودد لـك وأنـت كـاذب والأجـدر بـي منحك أعذار خفية وإن كانت أعذار واهية لا تليق بحبيبين.

و على غير العادة (وحشتني)..

لكل الأشياء التي ذهبت بلا عودة (أنا حنيت)

أعلمُ أن الذكريات حيلة الضعفاء..!

لكني مازلتُ أذكر صوتك العالق في مخيلتي..

أذكر ثغرك الباسم فرحاً..

لكن.. الفرحُ الذّي يأَتي بك، أَينَ ألقاهُ..!!؟

هنيئاً لتلك الأعين التي تراك.. هنيئاً لذاك القلب الذي تهواه.

تباً للفراق الذي أخذك دون وداع.. صَباحٌ بلا عينك (كالح)..

و ليل بلا صوتك مالح..

كل تلك اللوعة لا تفارقني.. قلت لك يوماً: غداً يا حبيبي ننسى.

هاهو الغد أتى.. لم أنسى.. ما زلتُ هنا أنتظر..!.. مازلتُ أصدحُ مع فيروز (كيفـك إنـت)..؟! مازلـتُ أذكـر (بتـذكر آخـر سـهره سـهرتا عندنا)..؟

مازلتُ أتساءل (كيفك آل عم بيقولوا صار عنك ولاد)..؟

لا تغرك عاطفتي الحمقاء، في صدري غصة حـزن وعنـاء.. فيومـاً مـا

كُنت حبيبي.. والآن بيني وبينك لا شيء!!

اذكر الآن كيف كان صوته وهو يعاتبني بدأب وبراءة فتذرف عيناي.

و لكن الآن لا أعلم ما الذي آل إليه صوته!.. ربما بح صوته وأخرسته الأيام.. كان دوماً يسألني بنبرة ساهرية حنونة حينما يتعكر مزاجي.. ها حبيبي.. ها حبيبي مو على بعضك أحسك..؟

أظنه مازال يدندن..

لم يبح صوته ولم تخرسه الأيام..

لا اعرف ما الذي سأفعله في هذا الكم من الالتياع.. أعد بلا ملل الثواني المتبقية في عقارب الساعة لعل ثانية تأتي بك في ثانية.. وتعود لي مرة ثانية..

كان بودي أن تلسعك عقارب الشوق ويأتي بك الوقت مجبراً..

كيف تقنع البعض أن لهم بالقلب شعور أكبر من أن يهمل وأن ما يقومون به جفاء..؟

منذ البارحة وأنا أبحث عن عبارة مقنعة تعيدك إلي دون مس كبريائي.

رغم أنني وبكل بلادة لم أستطع أن أجاري لامبالاة زائفة، وعلى كلٍ

انتهينا وحبنا لم يكن حقيقياً..

مؤلمة فكـرة أن لا أكـون حقيقية بقلبك..

(لكن هذا ما حدث)..!

من جانبي أنا أكن لك الكثير من الحب..

مازلت أعيش وهم برغم خلافاتنـا.. مازلـتُ أدنـدن مقنعـة كبريـائي برغم جميع قراراتنا بأن لا نعود.. بـرغم الجفـاء بـرغم الـبرود.. بـرغم انطفاء ابتساماتنا..

ثمة شعور يجعلني مؤمنة بأني وأنك ضعيفان في وجه أقدارانا..

شبيهان في كل أطوارنا..

دفاترنا.. لون أوراقنا، وشكل يدينا وأفكارنا.. وحتى نقوش ستائرنا وحتى اختيار اسطواناتنا..

(حتى قرار فراقنا) دليل عميق على أننا لسنا رفيقا مصير..!!

برغم جميع حماقاتنـا (لـن ولـن) نكـون رفيقـا مـصير.. فـنحنُ يـا قيصري المزيف كالشحنات الكهروستاتيكية المتشابهة، بيننا قوى تنافر كهروستاتيكي..

و تحـت ضـوء الـشمعة البيـضاء.. وكـوب القهـوة الـساخن، تنتهـي الحكاية..

فكلّ هذه المصابيح في قلبي لم تكن كافية لإضاءة عتمة قلبه!

و انتهينا.. هكذا هي نهايات الحب تعلوها الندم.

أما تهديد الهلاك الذي كانت نتالا تهددنا به لم يعد يجدي.. أصبح أمراً إعتيادياً، سقوط صوفيا ومن ثم إغمائها.. لم تنتهي الحكاية مع نتالا ونفثها في العقد فهي ترى أن كل الحق لديها وأننا نستحق ما تفعله بنا كنوع من الانتقام الأسود بتحريض من فنسس ووالدته سونا واخواته..

فنسس.. أنتَ الآن تفوقت كونك مرتبطاً ولديك ابنة جميلة تَفُوقُك جمالاً.. تَفَوقك على الجميع.. أمسى واضحاً.. لست بحاجة لإثبات ما هو مثبت ولست مضطراً أن تثبت أنك المتفوق، أتركنا وشأننا فحسب وأكمل تفوقك بشكل إنساني بعيداً عنا.. وأما ما اقترفته بحقنا لن يحاسبك عليه أحد غير الله.

وانه لمن المؤسف حقاً أن تعترف تلك النفاثة نتالا بالهزيمة كونها لم تعد تصلها الأخبار كما ينبغي وكما تطمح له وهي التي كانت وبكل وقاحة تضرب المندل وتقرأ الفنجان كل حسب طالعه كما كانت تزعم..

لكن الآن وبعد دخولها عالم السحر للتفرقة وزيادة المحبة، هل ستمضي لنهاية مجهولة متجَاهلة أن القدر كفيل برد اعتبار جميع الحقوق المسلوبة وإن كان أصحابها بكل جبن تنازلوا عنها..؟؟

قد تحتمل نتالا كل ما يجري ولكن سونا والدة فنسس، تلك الغوريلا

التي تخبط وتدمر كل ما يأتي أمامها و هي غـاضبة لن تصمت وقد تـشعر بالهزيمـة والتي عـاشت طوال حياتها' تحـاول نفيها..

فشعور الهزيمة هـو مـا أوصلها للانتقـام بـشكلٍ خفـي.. خوفـاً مـن اتهامها بالفشل.

أما نحنُ وكعادة المهزومين أو الجبناء أو قد ندخل تحت مسمى الذين (ما بيدهم حيلة) سنصمت لأي سبب من الأسباب السابقة، لأننـا حقـاً وبكل صدقٍ وأمانة تعبنا.. تعبنا من قهر يؤدي إلى اللاشيء..!

انسجمت نتالا مع تلك الخطة المكيديـة وحـضرت لتـدس الـسم بكـل رضاء ربما بسبب الخـبرة وربمـا بـسبب مـا يقـال عنـا كوننـا جمـيلات ومتكبرات وندعي المثالية علاوة على طول اللسان الـذي تميزنـا بـه رغـم صمتنا الدائم، هو تناقض غامض بين الحقيقة واللا حقيقة، لكن ما حدث لم يكن سوى تبرير للحقد البغيض الذي كان ينمو دون أسباب مقنعة، ما هو مقنع أنه توارث أحقاد ليس إلا.

لم تكن نتالا على خطأ الاستقبال المزركش من قبل أمي هو ما جعلـها تتمادى كونها صاحبة مكان، و أما نحنُ وبكل براعة كنا نحاول الاختباء كي لا نكون بالـصورة، ظنـاً منـا أننـا هكـذا سـننجو مـن بـراثن حقـدها وحقدهم.

خـيط رفيـع يفـصل بـين الغبـاء والحكمـة.. وبـين حـسن التـصرف

وسوءه.. بين أن تتصرف بعقل أو تعتقد ذلك بكل حماقة.

كانت تلك النتالا وزبانيتها مثل ضباع منهكة تحاول المقاومة تمضي أيامها الأخيرة في سيرك..

ففكرة التلاعب بأقدار البشر فكرة شيطانية.. و أما الأقدار فلها إله يقسمها بكل عدل ونشكره عليها..

ولكن أن تأتي حمقاء بوهن عنكبوتة تدعي ذلك، فأمرٌ مقزز غير أنه مثير للشفقة أيضاً.

و رغم أن كل مكائدهم الظاهرية باءت بالفشل، إلا أنهم لا يزالوا على قدرٍ من الحماسة بإمكانية النيل منا وهزيمتنا.

الآن نتالا وزبانيتها في الذروة، ومن المُفترض أن نكون نحنُ في القاع، تلك النهاية التي رسمتها نتالا.. ولكن هذه ليست نهاية الحكاية.

نحنُ نفقد شيئا جوهرياً كل أسبوع، وهذا أمرٌ يدعو للأسى، فمهزلة القبول بتلك العروض.. كل جمعة يذكرني بصاحب مسرح "مولان روج" مسرح الحياة الكبير وهو يردد :

يجب أن يستمر العرض..

يجب أن يستمر العرض

لكن إلى متى!؟.. و تنتهي بالمشنقة قصة انتقام غبية.. كيف نسعى

لتغير القدر.. للاعتراض على القضاء؟

حماقة أن يسيطر علينا الحقد أو البغضاء. فالبغضاء حقدٌ شامل كُره شديد ومَقْت.. ويلزمه عداوة أيضاً.

لا أجد ما أنهي به تلك الرواية والتي قد تكون متضاربة الأحداث، كون النهاية لم تكن واضحة.. كل ما في الأمر، أن في الحياة همج يحتاجون للموت.. بضراوة يسعون لقتل الفرح بكل برود، فالحياة وبشكلٍ عام لا تخلو من المفارقات، وهناك مفارقات على قدرٍ من السخف.. واللا شعور ومحاولة الانتقام من الذات بحجة البحث عن الكرامة المهدورة والتي نتسبب نحنُ بهدرها.

فالشاطر هنا ليس من يضحك في الأخر كما يزعمون..

فقد تضحك وانهزام العالم في صدرك يصرخ: الشاطر هو من يعفي أحبابه من الألم.



لم يكن شيئاً مهماً ..
فقط أهمس للّاشيء..!
همهمة قد تخفف أرق ما يحدث..
هسيس الأحداث يحتاج لمترجمٍ بارع،
فلربما أيقن الحرفُ أن مجهولاً كان هنا..
و مع الوقت سيتوه الغرباء..
و أبقى تلك التي خذلها الأقربون..
التقط وحشة الحياة.. و أبحث في ليلي الكالح
عن قمري الغائب.. منادية " ليلة لو باقي ليلة"
كلنا مخذولين من شخص ما .. من خيبة ما..
كلنا اتفقنا على الغياب .. على المضي حيث لا أحد
على الوداع رُبماً .. ندندن بصوتٍ جريح
" وداعية يا آخر ليلة تجمعنا.. "
هي الحياة.. و نحنُ..!





